حقوق المرأة في الإسلام

أحمد أجاييف



حقوق المرأة في الإسلام

حقوق المرأة في الإسلام

تأليف

أحمد أجاييف

ترجمة

سليم قبعين



حقوق المرأة في الإسلام

أحمد أجاييف

Woman in the Islamic World

Ahmed Agayev

رقم إيداع ٢٠١٣/١٥٨٢٩
تدمك: ٢ ٣٨٣ ٧١٩ ٩٧٧ ٩٧٨

مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة
جميع الحقوق محفوظة للناشر مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة
المشهرة برقم ٨٨٦٢ بتاريخ ٢٦ / ٨ / ٢٠١٢

إن مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره
وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه
٥٤ عمارات الفتح، حي السفارات، مدينة نصر ١١٤٧١، القاهرة
جمهورية مصر العربية
تليفون: ٢٢٧٠٦٣٥٢ ٢٠٢ + **فاكس:** ٣٥٣٦٥٨٥٣ ٢٠٢ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: http://www.hindawi.org

تقدمة الكتاب

بقلم سليم قبعين

مولاي العالم الجليل والمصلح العظيم صاحب السعادة قاسم بك أمين الأفخم.

ظهر في عالم الأخلاق باللغة الروسية هذا السِّفر الجليل لعالم نابغ من مسلمي الروس اشتهر بقوة الحجة وسداد الرأي؛ فشغل به لجزالة موضوعه جماعة العقلاء الباحثين من جمهور المسلمين هنالك، وقد وفقت لنقله إلى العربية خدمة لأبنائها عمومًا والمسلمين منهم خصوصًا، ثم زادني الأدب تشريفًا بحمل هذه الأمانة العظيمة من أهلها إلى أهلها؛ إذ كنت الصلة في الجمع بين مصلحي الشمال والشرق، وذلك برفع هذا الكتاب إلى جانبكم الأعلى ومقامكم الأرفع عساه أن يكون مقبولًا؛ فأكون قد وفيت للإنسانية والعلم حقًّا عليَّ أعزك الله.

كلمة للمعرب

بسم الله الرحمن الرحيم

إلى حضرات القراء الكرام:

اطلعت على هذا الكتاب باللغة الروسية، فراقني ما جاء فيه من المباحث الهامة التي تشغل في عصرنا الحالي أفكار النبت الجديد من المسلمين المتنورين الذين استنارت عقولهم بنبراس العلم والعرفان، وقد دفعتني خدمة الأدب إلى تحمل مشاق تعريبه والإنفاق على طبعه وتقديمه هدية إلى إخواني مسلمي الشرق؛ لما لهم عليَّ من الفضل والمنن، فيعلمون بعد مطالعته أن الناشئة الإسلامية في روسيا تشكو نفس شكوى الناشئة الإسلامية المصرية من سوء حالة المرأة المسلمة وحرج مركزها في المجتمع الإنساني، فيكون الكتاب كصلة الموصول بين مسلمي الشمال ومسلمي الشرق.

ثم إن الذي جرأني على طبعه ما رأيته من الحركة الفكرية التي قامت في أنحاء القطر المصري على إثر الأفكار التي أذاعها بهذا الشأن سعادة العالم المفضال قاسم بك أمين، وما زال صداها يرن في الأذهان، فأرجو أن تصادف خدمتي استحسانًا وقبولًا يحملانني على مواصلة الخدمة ونقل الكتب الإسلامية المفيدة من اللغة الروسية إلى العربية، وأنا بين هذا وذاك أرجو من مطالعي كتابي هذا أن يسدلوا حجاب الستر على ما يرون به من الزلل؛ فإن العصمة لله وحده وله الحمد في البدء والنهاية.

سليم قبعين

حقوق المرأة في الإسلام

قال المؤلف حفظه الله:

عندما خطتْ مسألة المرأة خطوة شاسعة إلى الأمام واتسع ميدان البحث بشأنها بين الشعوب المتمدنة، وأخذ يشغل أفكار وعقول أصحاب المدارك السامية الذين استنارت عقولهم بنبراس العلم وامتلأت أفئدتهم بحب الفضيلة، ثم إنه عندما اضطرمت نيران المزاحمة في سبيل الحياة في أوروبا وأميركا، وفقد من بين الناس أساس السيادة العائلية الذي أضاعت به المرأة حق حمايتها الطبيعية واهتمام الرجال بها، الذين هم رؤساء العائلات ويتحتم عليهم شرعًا إعداد جميع وسائل الراحة ومواد المعيشة للعائلة؛ كل ذلك حدَا بالمرأة إلى ضرورة الاهتمام بنفسها وتحصيل ما يلزم للقيام بأودها من طعام ولباس وغير ذلك، وقد فتح لها ذلك بابًا واسعًا للخوض في ميدان متاعب الحياة وأشغالها، وهي أمور كانت قبل ذلك محتكرة من الرجال دون النساء. ثم إنه أخيرًا عندما ارتقت بين الناس صفات العدل والإنصاف وأشرق نور العلم ودخلت أشعته العقول، علم الناس أن توالي الأجيال أوجد نظامًا خارجًا عن حدود العدالة خوَّل للقوي (الرجل) استعباد الضعيف (المرأة) وقد أحدثت معرفة ذلك انفجارًا هائلًا في أوروبا وأميركا عادت عاقبته بالفائدة الجزيلة للمرأة، فأخذت حقوقها بعد ذلك تتدرج في التوسع يومًا فيومًا حتى أصبحت مساوية لحقوق الرجال من جميع وجوهها في بعض البلاد المتمدنة.

وإذا أجلنا رائد الطرف في نفس هذا الوقت نرى في آسيا وأفريقية عدة ملايين من النساء التابعات لدين الإسلام قد حكم عليهن بالعبودية الثقيلة والانزواء الأبدي في ظلمات البيوت، وحرمن كل الحقوق التي يتمتع بها جميع أصناف البشر على الإطلاق، ولو تعمقنا في البحث لإصدار حكم عادل لرأينا أن كثيرًا من الأجناس في العالمين الحيواني والنباتي تتمتع بحقوق وأحوال حرمتها المرأة المسلمة، كحرمانها مثلًا في بعض البلاد

من إطلاق الحرية لنمو جسمها النمو الطبيعي وحرمانها من استنشاق الهواء النقي في فسيح الفضاء، فالهندوس الذين هم أقل رقيًّا وأدنى حالًا من المسلمين قد سبقوهم في هذا المضمار ووجهوا التفاتهم إلى هذا الأمر الجلل، فقد نبغ من بينهم رجال أفاضل ذوو مدارك سامية وأفكار نبيلة من الناشئة الجديدة، لم يعبأوا بالعادات القديمة والتقاليد الفاسدة التي ترسف أمتهم بأغلالها، ولم يلتفتوا إلى سخط الرأي العام، فعقدوا المجتمعات المتوالية وجاهروا بضرورة الاهتمام بشأن أولئك الصغيرات المنكودات الطالع اللاتي يستشهدن على مذابح المعتقدات الدينية والعادات الملية.[1] وعقد أولئك الأدباء الأفاضل الخناصر على تكريس حياتهم للاهتمام بتحسين حالة الصغيرات أمهات المستقبل، وواصلوا سعيهم في هذا السبيل المبرور وذللوا كثيرًا من المصاعب التي صادفتهم.

والواقف على أعمال المصلح الهندي الشهير (ما لا باري) يرقص فؤاده طربًا وتمتلئ جوارحه سرورًا؛ إذ تتمثل لديه أعمال المصلحين الكبار ويرى بأجلى بيان أن إرادة الرجل الواحد إذا اتجهت لغاية نبيلة ومقصد شريف، وتعززت بالاعتقاد المتين بقداسة وعدالة العمل المشروع به، تذلل المصاعب التي تتجلى للشارع في العمل جسيمة لا ترام وتحول الصعب سهلًا، وبين هذا وذاك فإن حالة المرأة المسلمة مع ما هي عليه من الجهل المطبق وحرج المركز لم تصادف إلى يومنا هذا رجلًا شديد العارضة ومصلحًا ذا عزم ثابت وإرادة لا تتزعزع، يدعو المسلمين إلى إصلاح حالة المرأة ويكون لقوله تأثير شديد في النفوس. أجل إننا لا ننكر بأنه ظهرت بين العثمانيين والمصريين أصوات نادت بالدعوة إلى الأخذ بناصر المرأة، وصرحت تلك الأصوات الجريئة الجسورة بخطارة حالة المرأة المسلمة التي جرت أضرارًا جسيمة على العائلة والهيئة الاجتماعية الإسلامية، وإن الضرورة وظروف الأحوال تحتم وجوب تحسين نظام معيشة المرأة بين المسلمين وتحرير المرأة من تلك القيود المقيدة لمواهبها العقلية والجسدية، ولكنه من جهة أخرى فإننا نرى تلك الأصوات لا تزال ضعيفة خافتة مزعزعة، وإذا نادت فإنما تنادي بمزيد الحذر والتلميح، ولذلك فلم يكن لها تأثير شديد على المسلمين، ولم تجد بينهم آذانًا مصغية ولا قلوبًا واعية.

ولا ننكر أيضًا فضل تلك الأصوات التي كانت السبب الوحيد في إنشاء كثير من مدارس البنات في الآستانة العلية والقاهرة، وفي كثير من أمهات المدن العثمانية والمصرية التي نبغ منها عدد وافر من النساء الكاتبات العالمات بين المسلمين،[2] بيد أن هذا الظهور الأدبي محصور بين أفراد بعض عائلات الطبقة العليا الإسلامية التي تحتك دائمًا بالأوروبيين وتختلط معهم كل يوم؛ فتقتبس منهم مبادئ المدنية والتربية فتتفرنج وتسير في نظام

معيشة عائلتها الداخلي على النسق الإفرنجي، ولكن سواد المسلمين الأعظم الباقية بينهم المرأة في أشد الحالات المحزنة المؤلمة العديمة الاحتمال ينظر إلى الطبقة العليا الإسلامية العائشة على النسق الإفرنجي (*á la frangui*) بعين الاحتقار ويحسبهم في عداد الخوارج، فهل ترى يدلنا هذا الأمر على فساد المسلمين النهائي الذي يحول دون أن يظهر بينهم رجل ذو حزم وعزم وإقدام، وغير ذلك من الصفات الجليلة التي تدعوه إلى التوجع والتفجع لشدة آلام المسلمات بنات جنسه ودينه، ويجاهد الجهاد العنيف في سبيل إنقاذهن من حالتهن التي يحن لها الجماد ويتصدع من هولها الفؤاد؟ وهل يا ترى يستطيع الإسلام إعداد تربة جيدة لإنبات مثل هذا الرجل الجديد؟ وهل يظهره يومًا ما إلى حيز الوجود أو بالعكس تعليم ماخوند[٣] الذي هو إحدى فلتات الطبيعة كما دعاه فولتير قد وضع حول أتباعه دائرة سحرية لا يمكن أن يتجاوزها أو يتعدى حدودها شعاع واحد من أشعة العلم واليقظة.[٤]

وللإجابة على هذه الأسئلة يوجد رأيان: أن سواد الناس الأعظم — الذي يسلم بداهة بالأمور دون بحث بأسبابها ونتائجها، وذلك بالنظر لاستيلاء العقائد الفاسدة على عقولهم ورسوخها في أذهانهم، سواء كان في أوروبا أو روسيا على الخصوص — يعتقدون اعتقادًا متينًا بأن الذنب على الإسلام في جميع ما يجري في البلاد الإسلامية، ولولا وجوده لكانت الحال هناك على غير ما هي عليه الآن، والمعتقدون بهذا الاعتقاد يرون أن المسلمين ما داموا مسلمين لا يستطيعون الإقبال على المدنية الأدبية العمومية، ثم إنهم — أي الغربيين — يزعمون أن الشر جميعه متمثل في الإسلام ويتصورون أن أعظم وسيلة تنقذهم منه هي ملاشاة نفس الدين ومحقه من وجه الأرض، وهذه الأفكار رسخت في العقول منذ أجيال عديدة سالفة من جراء الخصام والشقاق والنزاع العنيف بين الغرب والشرق في أثناء قرون مديدة بسبب اختلاف الإسلام والمسيحية، الأمر الذي يظهر للرجل الساذج الذي لم يعتد التفكر والتروي والتأمل بأن هاتين الديانتين على طرفي نقيض في الجوهر والمعتقدات ولا يمكن التوفيق بينهما. وأخيرًا إن هذا الاعتقاد ساد مدة طويلة بين أهل الغرب؛ يدلنا على ذلك دلالة واضحة الآداب البيزنطية والآطينية المضادة للإسلام، ومن أراد زيادة إيضاح عليه أن يقف على مؤلفات ومخلفات العصور الوسطى لا سيما الفترة التي حدثت فيها الحروب الصليبية.

والإنسان يتأثر تأثرًا شديدًا تهتز له أعصابه عند مطالعته تلك الترهات والمثالب والمطاعن التي كان يتناشدها مغنو وشعراء الرومان الساذجون، وينادي بها النساك

ورجال الدين في المعابد والمجتمعات العامة والبراري، يصفون فيها شخص وتعليم سائق الجمال الذي أطلقوا عليه اسم «النبي العربي الكاذب».[٥] ومن الأمور المضحكة المبكية نظر أهل الأجيال الوسطى إلى الإسلام واعتقادهم به، فكان الشعب يصدق بداهة كل افتراء على الإسلام وأتباعه، وقد بالغوا في استنباط المفتريات والسفاسف لدرجة لا يجوز تصديقها لما فيها من الغرابة المنكرة، وقد أدى بهم الجهل إلى تصوير محمد بهيئة شيطان ذي قرنين وأطلقوا عليه اسم (ضد المسيح) الراسخ في أذهان القوم بأنه يفسد الناس ويخرجهم عن دينهم، ولذلك لا بد أن يزج في سعير النار حيث لا يقر له فيها قرار. ثم إن تيورين الكاذب المفتري ألف رواية وصوَّر فيها محمدًا بهيئة الصنم ماهوم الذي كانوا يعبدونه في قادس ولم يجسر كارلوس الأعظم على تحطيمه وتكسيره خوفًا من الأبالسة المختفية في جوفه.

ومما مر يتضح للقارئ أن العقول النيرة كانت منغمسة بمثل هذه الاعتقادات الفاسدة والمفتريات الباطلة البعيدة عن الحقيقة بعد السماء عن الماء، وقد أجمعوا عليها كلهم، حتى إنه لو قام بينهم في مثل ذلك الوقت رجل كشف الله له عن نور الحقيقة وجاهر بها لكنت ترى الناس يصبون عليه صواعق سخطهم ونقمتهم، فقد كادوا يحرقون دانتي في النار لأنه عدَّ محمدًا في (روايته الإلهية) بين الرجال العقلاء ذوي المدارك السامية المصلحين، فاضطر لكي ينجو من سخط الشعب الذي تهدده بالقتل أن يضعه في عداد الرجال الأشرار الذين عاثوا في الأرض فسادًا وبثوا بذور الشقاق والنفاق والخصام بين معاصريهم مثل «فرا دالتشينو» و«برتران دي بورن» وغيرهما الذين هم في عرف الشعب من سكان جهنم.

ثم إن المصور الإيطالي الشهير أركانيوس وضع عدة رسوم للأشخاص الذين يحتقرون جميع الديانات على الإطلاق واتخذوها لمجرد الهزء والسخرية، فصوروهم واقفين في جهنم ولهيب النار يكتنفهم من جميع الجهات، وفي مقدمتهم محمد وأفيروئيس (الوليد بن رشد) والمسيح الدجال أو ضد المسيح. وبوجه الإجمال فإن الأجيال الوسطى — كما قال أرنست رنان — قد اشتهر أهلها بالحدة وعدم التروي، ولم يكن عندهم درجة متوسطة لأمر من الأمور، فكان محمد في عرفهم خداعًا ماكرًا متخذًا مهنة سرقة الجمال، وقالوا عنه بأنه كاردينال سعى للحصول على وظيفة البابوية، فلم يفز بها، فوضع ديانة جديدة لكي ينتقم من زملائه الكرادلة، وما ضارع ذلك من الأوصاف المجردة عن الإنصاف ولا تنطبق على العقل السليم،[٦] تمر الأجيال وتنقضي السنون، ولا تزال سفاسف الناس وترهاتهم وأفكارهم السخيفة الواهية تضغط على العقول النيرة كما كانت في العصور المظلمة.

إن بيبلياندر وهوتينجر وماراجي وغيرهم أخذوا يدرسون القرآن درسًا مدققًا على قصد تقويض أركانه، وأما ليبينتس وشكسبير فإنهما تكلما كثيرًا على نبي المسلمين بقصد إضحاك الجمهور وتسليتهم، وأما فولتير فإنه التمس الغفران من البابا بواسطة تقديمه له رسالة الطعن المشهورة التي عنوانها «محمد» وقد نسب بها إلى النبي محمد أمورًا منكرة لم تخطر بباله، ومنافية على خط مستقيم لروح تعليمه ومباديه، وقد ضمنها بهذين البيتين فنذكرهما بالحروف وهما:

Je dois règir en dieu l’univers Prèvenu,
Mon empire est dètruit, si l’homme est reconnu,

ثم إن الجيل التاسع عشر المسمى بحق جيل العلم والانتقاد الصحيح لم يخل من مثل هذه المختلقات والمفاسد التي جاهر بها بعض قادة الأفكار وأصحاب العقول الممتازة، فقد وضع العالم الإنكليزي الشهير كارلوس فورستير عام ١٨٢٩ مجلدين ضخمين وقعا موقع الاستحسان والاحترام في نفوس رجال الدين؛ لأنه برهن فيهما بالأدلة الكثيرة على أن محمدًا هو قرن الكبش الصغير الوارد ذكره في الإصحاح الثامن من نبوة دانيال، وأن قرن الكبش الكبير هو البابا،[٧] ولكن النصف الثاني من الجيل التاسع عشر الذي أشرقت فيه أشعة العلم وأماطت النقاب عن الشرق وتاريخه وحياته، وذلك أنه عندما ازدادت المواصلات بين الشرق والغرب بواسطة انتشار السكك الحديدية، وازداد توافد الغربيين إلى الشرق؛ حيث دعتهم المصالح التجارية والصناعية والسياسية إلى الضرب في طول البلاد وعرضها، فقاد العلم وحب الاستقراء علماءهم وأصحاب الأفكار الفياضة منهم إلى درس أخلاق وعادات أهل الشرق المتدينين بغير دينهم ودرس أحوال البلاد في نفس البلاد.

ولم يقفوا عند هذا الحد بل تجاوزوه إلى مطابقة مبنية على العلم والتحقيق والكتابات الماضية، وأبدوا في خلال ذلك ملاحظاتهم على الأدوار العديدة التي تقلبت فيها الأديان منذ ظهورها وما تحملته من الانقلاب والتغيير، ولم يميلوا في عملهم هذا ودرسهم مع الأهواء، بل دونوا الحقيقة مجردة من كل غرض فاسد وميل منحرف، وهذا يناقض حالة العلماء في الأجيال الماضية الذين غشى التعصب الديني أبصارهم وأسدل حجابًا كثيفًا على أفكارهم؛ فأعماهم عن المجاهرة بالحقيقة وقادهم إلى الابتعاد عن جادة الحق والإنصاف، وقد تبعهم في ذلك سواد الناس الأعظم الذين لزعمهم بأنهم حاملو الحق فإنهم لا يستطيعون احتمال معتقدات غيرهم من الناس والوقوف حيالها موقف السكينة والرضى، بل يسفهونها ويذهبون في انتقادها كل مذهب.

أما في أيامنا الحاضرة التي أصبحت فيها الأديان مادة للمباحثات العقلية فقط لأنها فقدت مادة التعلق بها ذلك التعلق الديني الشديد، ولا يهتم الناس بها الآن إلا لأنها من مظاهرات نفس الإنسان، ولم يعد الناس يتحاورون بشأنها، ولا يوجه كل صاحب دين إلى الأديان الأخرى أنواع السباب والمطاعن والتهكم، وأصبح عمل المستشرق الذي يهتم بأمور الأديان والوقوف على تاريخ المشرق يخرج من تحت يراعه كتحليل الكيماوي الذي يخرج من معمله، وتراه — أي المستشرق — يهتم بجميع العوارض والمظاهر اهتمامًا واحدًا دون أن يفضل أمرًا منها على الآخر، وإنما ينشرح صدره وتطيب نفسه لدى اطلاعه ووقوفه على مبتكرات فكر الإنسان في كل آن وزمان وإظهار قواه الفياضة، ولذلك فلا عجب إذا شاهدنا في هذا العصر الانقلاب العظيم الشأن الذي أحدثه درس أحوال الشرق، فإنه غير نظر العلماء السابق بشأن الأديان المختلفة وشئون الشرق على العموم ولا سيما بشأن محمد وتعليمه، فأصبح محمد في عرفهم ونظرهم ليس صورة للصنم ماهوم الذي كان يعبد في قادس، ولا هو ضد المسيح المقيد في جهنم، ولا قرن الكبش الصغير الوارد ذكره في نبوة دانيال، بل هو ذلك المصلح العظيم الذي هز العالم بتعاليمه ومبادئه وأفكاره السامية، وأنه وضع أساس تعليمه ليس لأنه كان كاردينالًا ولم يفز بوظيفة البابوية، بل لأن فؤاده كان يلتهب غيرة على الحق الذي شوهت وجهه الشكوك والاختلافات التي دخلت عليه، ذلك الحق الذي نادى به في العالم ذلك (النبي العظيم) قبل ظهوره بستة قرون، ولم يدرك جوهره تلاميذه النشيطون الغيورون، بل ذهبوا في تأويله كل مذهب عندما علموا الناس به ولا سيما في البلاد العربية، وقد ورد في القرآن آيات كثيرة تدل على ذلك بأجلى بيان، وتأملوا فقط ذلك الشكران الجميل الذي جاهر به نبي المسلمين بشأن الصابئين الذين ظنوا لأول وهلة أنه ينادي بتعليم المسيح. ثم إن آيات القرآن النازلة بشأن آلام عيسى وولادته وذكر مريم والدة روح الله، فإنك ترى التأثر ظاهرًا من كل كلمة منها مقرونًا ذلك بمزيد التعظيم والاحترام، وفوق هذا وذاك فإن المسلمين يعظمون مريم أكثر من بعض الطوائف النصرانية، فهي في عرف المسلمين عذراء طاهرة صالحة قد اصطفاها وشرفها رب العالمين، والنبي يظهر لها احترامًا دينيًّا يفوق الوصف، حتى إنه عندما أراد أن يمتدح ابنته فاطمة قال: «فاطمة سيدة نساء أهل الجنة إلا مريم بنت عمران.» ثم إن النبي أدرك تعليم عيسى كما هو، وجاءت الديانة المحمدية مطابقة لها، ونفت جميع المعتقدات الباطلة التي دخلت عليها وشوهت جوهرها، وورد في أمكنة كثيرة من القرآن ما مؤداه «إني جئت لإثبات تعليم عيسى الحقيقي.»[٨]

قال المستشرق الإنجليزي الشهير ماكس موللر: «سوف يعلم المسيحيون بدهش عظيم أن محمدًا أحد معضدي يسوع، وأن الديانة المحمدية ما هي إلا شيعة من شيع الديانة النصرانية، وإذ ذاك يندهش المسلمون والمسيحيون معًا بسبب ما جاء في تاريخهما من الخصام والشقاق والعداء بسبب الدين.»[٩] وقد وافق كثير من علماء أوروبا المستشرقين على رأي هذا العالم، وعضدهم في ذلك أيضًا كثيرٌ من الروسيين العقلاء ذوي الأفكار السامية مثل فلاديمير سولوفيف وبيتروف وغيرهما، ولكن مع الأسف نقول: إن سواد الناس الأعظم لم يزل على غيه تائهًا في فيافي الضلال، ولا يجنح إلى الحقيقة الثابتة التي أيدها علماؤه وقادة الأفكار منهم، بل ما زال رازحًا تحت نير اعتقادات وخرافات القرون الوسطى بشأن محمد وتعليمه ناسبًا ضعف الأمم الإسلامية في عصرنا الحاضر وانحطاطهم السياسي والأدبي والاختلاف العام فيما بينهم إلى الإسلام، وجاهلًا بأن كل إنسان في هذه الحياة لا يستطيع أن يلعب على الدوام دور النجاح والتقدم، وأن الديانة ما هي إلا شيء مستقل مجرد عن كل قوة لا تستطيع تحسين حالة الحياة، ثم إنه وأخيرًا لا بد من حصول الشقاق المتبادل الدائم بين المتدينين بالديانات المختلفة ولو كان ذلك بطريقة غير محسوسة، لكنه دائم الحركة المشتركة بين المتخالفين في المعتقدات. وكل ديانة — كما لا يخفى — تكون في أول ظهورها محركًا قويًّا تدب روح الحركة في قلوب الذين يتبعونها، وذلك على قدر ما يكون لها من التأثير الروحي والمادي في نفوسهم، ولكنها — أي الديانة — تتقلب مع مرور الزمان في أدوار مختلفة بحسب حالة تابعيها من العلو والانحطاط فتعتز وتعلو بعلو شأنهم وتنحط بانحطاطهم، ويدخل عليها في الحالة الأخيرة الفساد وتشوه الاختلافات التي تدخل عليها وجه حقيقتها وتزعزع أساس جوهرها، وهذا هو السبب الوحيد والبرهان الفرد على ظهور البدع والشيع المتعددة في هيكل الديانة الواحدة وكذلك دخول الفساد على تعاليمها وتفاسيرها.

ولو قابلنا حالة الديانة المسيحية بحالتها في القرون الوسطى وفي أيام الإصلاح وأيامنا الحاضرة، لظهرت لنا بأجلى بيان تلك الأدوار المختلفة التي كابدتها وما دخل عليها من التغيير والفساد والتفاسير المتناقضة المتباينة، مع أنها ديانة مبنية على أساس متين واضح، ومثل ذلك جرى للديانة الإسلامية بقطع النظر عما دخل عليها من البدع والتفاسير التي لا تطابق حقيقة جوهرها وليست منها في شيء. وقد حدث نفس هذا الأمر للمرأة المسلمة، فإن حالتها اليوم في الهيئة الاجتماعية الإسلامية على عكس ما وضعه لها الإسلام وما كانت عليه في بدء ظهوره.

وينبغي لنا قبل التكلم عن حالة المرأة في الإسلام وما وضعه لها من الحقوق أن نرجع بنظرة إلى الوراء لنقف أولًا على أحوال العرب وطرق معيشتهم في الزمن السابق للإسلام، ونعرف من ذلك حالة المرأة في ذلك الوقت بين العرب وبين الشعوب المجاورين لهم، وبناء على ذلك نستطيع إصدار حكم حقيقي مطابق للواقع ومبني على العقل الراجح المتثبت من الأمر، فنقف بعد ذلك الحكم على الدور الذي لعبه الإسلام في تحريك مسألة المرأة وما صنعه محمد للمرأة عمومًا وللعربية خصوصًا.

غير أن أكثر الباحثين ينبذون هذا الرأي ولا يتمسكون به، ولذلك تكون نتيجة أبحاثهم فاسدة سطحية غير مبنية على الحقيقة والعلم الصحيح، والعاقل لا يعول على مثل هذه الأحكام، وأمثال هؤلاء الباحثين يستنتجون أن ما قاد المرأة المسلمة إلى ما هي عليه في عصرنا الحالي من الانحطاط غير الدين الإسلامي، فيحكمون عليه حكمًا سطحيًّا جائرًا، وينسبون إليه أمورًا ما أنزل الله بها من سلطان كما كانوا يحكمون عليه في القرون الوسطى.

ولا يخفى أن هذه الطريقة سهلة المأخذ قريبة المرجع في الظاهر، ولكنها في الحقيقة ونفس الواقع مجردة عن كل صبغة تاريخية حقيقية، فلو ذكر لنا شخص مثلًا ما كانت عليه أوروبا في القرنين الثالث والرابع عشر من سوء الحالة والاضطراب والمخاوف والويلات التي تراكمت عليها مثل السمونيا وديوان التفتيش، والاضطهادات الدينية وسفك الدماء البريئة وغير ذلك من الأهوال والمظاهرات البربرية، وقال أيضًا إن جميع ذلك جلبته على أوروبا الديانة النصرانية؛ فهل يصح يا ترى التسليم بهذا الحكم المؤلم المضحك، ومع ذلك فإن الإسلام في هذا العصر يرسف بأغلال قرونه الوسطى؛ ذلك لأن جميع نقائص المسلمين اليوم تنسب إليه كما نسبت نقائص أوروبا في القرون الوسطى إلى الديانة المسيحية، فكما أن أكثر المسيحيين إذ ذاك لم يفهموا ولم يدركوا كنه دينهم، فكذلك أكثر المسلمين اليوم لا يفهمون أمور دينهم ولا يعملون بها، ولذلك فإن جميع نقائصهم — كما قدمنا — وقصورهم وتأخيرهم تنسب إلى ديانتهم كما ينسبون انحطاط وهمجية وقصور كاثوليك القرون الوسطى إلى الديانة النصرانية. ولكن كان الأجدر بجماعة العقلاء والمتأدبين أن يبحثوا عن تلك العلل والمسببات في غير الديانة، أو بعبارة أخرى كان يجب عليهم أن يجدوها في المبادئ والأمور المضادة للدين والمعادية له؛ لأن الديانة المؤسسة على الخير والصلاح الدائم والعدل والإدراك والحياة بعد الموت وخلود النفس والثواب والعقاب على الخير والشر، لا يمكن أن توجد بين الناس مثل هذه النقائص والشرور المنتشرة بينهم،

واسمع ما قال العالم المسلم الشهير بهذا الشأن:[10] «الإسلام بنفسه منزه عن كل نقص وإنما النقص في إسلاميتنا.»

ونحن الآن نترك البحث فيما وصلت إليه حالة المسلمين، ونأخذ بتلابيب مسألة المرأة وعلاقة الإسلام بها من الوجهة العملية، أو بعبارة أوضح نبحث فيما جاء في الديانة الإسلامية من التعليم بخصوص المرأة ونعرِّف القارئ بالحالة التي وجد فيها محمد المرأة في البلاد العربية خصوصًا والشرق عمومًا، ثم ننتقل بعد ذلك إلى البحث فيما صنعه محمد للمرأة أو فيما حاول صنعه لها على الأقل. وأظن أن هذه الطريقة تؤدي إلى إمكان معرفة ما ستئول إليه حالة المرأة المسلمة في المستقبل عندما يفتح الله بصيرة المسلمين ويكشف لهم عن نور الحقيقة، فيدركون جوهر دينهم ويفهمونه فهمًا حقيقيًّا كما هو. ومن جهة أخرى أرجو أن أدحض تلك المثالب التي ينسبها للإسلام أولئك العلماء والباحثون المجردون عن الإنصاف الذين يستسلمون للأغراض والأهواء النفسانية، فيصدرون أحكامًا سطحية تكذبها الحقيقة الراهنة كاتهامهم الإسلام مثلًا بإحداث أمر تعدد الزوجات.

إن حالة المرأة في البلاد العربية والمتاخمة لها قبل ظهور الإسلام كانت حالة مؤلمة لا يرضاها من كان في فؤاده أقل شعور حي، ففي بلاد فارس لم تكن المرأة تمتاز في شيء عن الأمَة أو العبدة الرقيقة، فكانت تقضي جميع أيام حياتها مسجونة ضمن جدران منزلها لا يسوغ لها أن تخرج منه مطلقًا أو تجيل بصرها في فسيح الفضاء. وقد أباحت نظامات البلاد المدنية بيع وشراء النساء كالسلع،[11] وأما نظامات البلاد الدينية فقد أباحت الزواج بالأمهات والأخوات والعمات والخالات وبنات الأخ وبنات الأخت،[12] ثم إنه في الأدوار الطبيعية المشهورة التي تحدث للمرأة كانت نساء الفرس يبعدن عن المنازل ويقمن في خيام صغيرة تُضرب لهن في ضواحي المدينة أو البلدة، ولا يجوز لأحد مخالطتهن قطعًا (وتعرف تلك الخيام المخصصة لإقامة النساء في أيام الطمث باسم داخمي)، حتى إنه كان يجب على الخدام الذين يعهد إليهم تقديم الطعام والشراب لهن أن يلفوا مقدم أنوفهم وآذانهم وأيديهم بلفائف من القماش الغليظ، وكانوا يتحفظون بمثل هذا التحفظ لأنهم كانوا يعتقدون أنهم يتنجسون إذا مسوهن أو مسوا الخيام أو الأشياء المحيطة بهن حتى الهواء.[13]

وكانوا يكرسون بنات الأشراف والملوك للإلهة أناخيدا المشهورة؛ حيث كان كهنتها يتممون عليهن بعض الفروض المخصوصة ويعدونهن بتعاليم خاصة إلى الزواج.[14] وأما بشأن حقوق المرأة ومركزها في العائلة ونسبتها إلى زوجها ووالديها فحدِّث ولا حرج؛

فإن النساء كن في بلاد فارس تحت سلطة الرجل المطلقة الذي كان يحق له أن يحكم عليها بالموت أو ينعم عليها بالحياة طبقًا لما يراه وتطيب له نفسه، وبوجه عام فإنه كان يتصرف بها كما يتصرف بسلع وأدوات بيته.

وأما حالة المرأة في البلاد العربية فكانت أشد صعوبة وأتعس حالًا منها في بلاد فارس، فكان العربي يتطير إذا وُلدت له ابنة وترتعد فرائصه جزعًا ويعدُّ ذلك علامة على عدم رضى الآلهة عنه،[١٥] فكان إما أن يئدهنَّ في الرمل أو يبيعهن بيع الرقيق أو يستبدلهن ببعض الحيوانات الأهلية.[١٦] وأما الزواج عند العرب فلم يكن له نظام مخصوص محدد ببعض الفروض أو مقيد بعادات متبعة، كلا ثم كلا، بل كان يحدث بطريق المصادفة، ولم يكن أحد الزوجين ملزمًا بدفع بائنة أو شيء من الأشياء. ويظهر للباحث أن أخلاق العرب البدوية وما اتصفوا به من البسالة والشجاعة والفروسية كانت السبب الوحيد في عدم تقييد الزواج بأصول متبعة، والغالب أن الزواج كان يحدث من طريق الحب الاختياري المقرون بالتغزل والقصائد الشعرية وبدائع النسيب، وفي جميع أحواله كانت الحرية مطلقة للزوجين أن يترك أحدهما الآخر متى شاء وأراد، والأمر الوحيد الذي كان يربط الاتحاد الزوجي إنما هو الخوف من انتقام أقارب المرأة الأشداء البأس، وقد وصف ذلك أحسن وصف في الرواية الآتية الطبري المؤرخ العربي المشهور.[١٧]

في واقعة أحُد التي وقعت بين أهل مكة وصحابة النبي محمد أهل المدينة خرجت نساء المكيِّين إلى ساحة القتال وراء أزواجهن وكانت ترأسهن هند بنت عتبة زوجة أبي سفيان، وقد قامت في النسوة اللاتي معها وأخذن الدفوف يضربن بها خلف الرجال ويحرضهن، فقالت هند فيما تقول:

ويهًا بني عبد الدار   ويهًا حماة الأدبار   ضربًا بكل بتار

وتقول أيضًا:

إن تقبلوا نعانق   ونفرش النمارق
أو تدبروا نفارق   فراق غير وامق

وكان تعدد الزوجات لدى ظهور محمد منتشرًا انتشارًا هائلًا، فلم يكن عربي ميسور إلا وتراه متزوجًا ١٥ أو ٢٠ وأحيانًا ١٠٠ زوجة،[١٨] وكانت المرأة محرومة من

جميع الحقوق على الإطلاق وحالتهن لَمِمَّا يرثى لها، فلم يكن لها حق بالإرث عن زوجها أو أحد أقاربها من الرجال.[١٩] وكانت عندهم عادة مقدسة معمول بها تخول الوالد حق التصرف ببناته كيفما يشاء، فكان يزوجها لشخص وهي رضيعة في المهد، فإذا ما نمت وبلغت سن الرشد لا تستطيع المعارضة، بل يتحتم عليها أن ترضخ رضوخًا أعمى لأحكام والدها عليها.[٢٠]

أما النبي محمد فإنه نادى في بدء ظهوره بضرورة إزالة تلك العادات الهمجية البربرية المتبعة مع النساء، وكان يتأثر أشد التأثر لحالة المرأة وما هي عليه من الانحطاط والامتهان، ولم يكن فؤاده الرقيق يتألم ويتأثر أيضًا لشيء مثلما يتأثر مما كان يراه في حالة المرأة السيئة المتروكة دون أقل اهتمام وليس لها عضد أو نصير، وكذلك كان يتألم لرؤيته الأطفال والأولاد الذين يتركهم والدوهم ومثل ذلك الغرباء الذين لا مأوى لهم. والمطلع على ما ورد في القرآن الكريم من الآيات البينات بشأن النساء والأيتام والغرباء لا يفتأ حتى يتقطع فؤاده ألمًا وجزعًا لما تضمنته تلك الآيات من الكلام المؤثر الشديد اللهجة.

وقد خصصت في القرآن سورة طويلة للنساء معروفة بهذا الاسم، وهي تدل دلالة واضحة على الأهمية الكبرى التي أظهرها محمد بشأن مسألة المرأة، وتبتدئ تلك السورة بآية لم يكن ينتظر سماعها رجال العرب وعدوا ذكرها جرأة عظمى وهي: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾. إن كلمات هذه الآية اشتم منها العرب الوثنيون رائحة الاضطراب والثورة المقصود بها القضاء على سننهم وتقاليدهم وعاداتهم وأخلاقهم وأفكارهم وأفهامهم، ولكن إذا نظرنا إلى كلمات تلك الآية من وجهة أخرى نجد أنها توجه إلى العرب عبارات التوبيخ والملام المملوءة بالعار بالشنار، وتفهمهم أن الرجل والمرأة مخلوقان من نفس واحدة وأنهم متساويان في كل شيء ومسئولان أمام الله على السواء عما يفعلانه. وبعد ذلك يقص القرآن كيف خلق الله آدم وحواء وأورد تلك القصة كما جاءت في التوراة بتغيير طفيف لا يذكر، ونحن لا نتمسك كثيرًا بآيات هذه السورة التي نزلت خاصة للمرأة لأنها لم تجئ مترادفة، بل تخللتها آيات كثيرة خاصة بالتعليم عن القداسة والأعمال الطيبات وإغاثة الملهوف وحماية الغرباء والرفق بالأيتام وغير ذلك.

ثم إن القرآن وقف وقفة المدافع الشجاع ضد عادة العرب الهمجية، ألا وهي وأد البنات في الرمل، وقد ورد الكلام عنها دفعتين: في الأولى مثَّل للقارئ حالة جهنم المخيفة

ونيرانها الملتهبة وأفاعيها المتصاعدة من أفواهها النيران المحرقة ثم أقام أمام عيني العربي ابنته الموؤدة تقول له: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ﴾، وفي الدفعة الثانية يصف جنة الخلد وصفًا مؤثرًا ثم أتبعه بالآية القائلة: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم﴾. وفوق هذا وذاك فإن محمدًا لم يدع في حياته أحدًا يئد بنتًا، واجتهد اجتهادًا عظيمًا لنزع هذه العادة من بين العرب، ولم يقف عند هذا الحد بل زرع في قلوبهم هول وفظاعة هذا العمل الشنيع. وبعد فتح مكة ودخول أهلها الوثنيين في الإسلام كان من جملة الشروط عليهم أن يقسموا الأيمان الغليظة بعدم وأد بناتهم.[٢١]

وعدا ذلك فقد وصلت إلينا جملة أحاديث نبوية تتضمن الكلام بخصوص المرأة ورفع منزلتها في عيون العرب، ففي أحدها جاء ما مضمونه (أن ولادة البنت علامة من علامات نعم الله ومراحمه).

ووردت أيضًا أحاديث أخرى بشأن الأولاد الذين يموتون كيف أنهم يشفعون بوالديهم ويكونون وسيلة لإدخالهم الجنة، فنذكر بعضها إتمامًا للفائدة:

أخرج أبو نعيم في الحلية عن أبي إمامة أن رسول الله ﷺ قال: «ذراري المسلمين يوم القيامة تحت العرش شافعين ومشفعين.»

وأخرج حميد بن زنجون ومسلم وأبو نعيم عن حسان قال: قلت لأبي هريرة: توفي لي ابنان فحدثني شيئًا سمعتَه من رسول الله ﷺ تطيب به أنفسنا عن موتانا. قال: صغاركم دعاميص الجنة يلقى أحدكم أباه فيأخذ بصنفة ثوبه كما أخذت بصنفة ثوبك فلا ينتهي حتى يدخله الله وإياه الجنة.[٢٢]

وروى أبو النضر السلمي أن رسول الله ﷺ قال: «لا يموت لأحد من المسلمين ثلاثة من الولد فيحتسبهم إلا كانوا له جُنة من النار.»

وأخرج البخاري والنسائي وابن ماجة عن أنس قال رسول ﷺ: «ما من الناس مسلم يموت له ثلاثة من الولد لم يبلغوا الحنث إلا أدخله الله الجنة بفضل رحمته إياهم.»[٢٣]

ومنها أيضًا:

روى أبو هريرة عن شيخ من بني تميم عن عمر بن أبي بكار عن محمد بن أبي فراس عن أحمد بن الهيثم بن فراس بن خلف بن المرزبان قال: إن قيس بن عاصم دخل على رسول الله ﷺ وفي حجره بعض بناته يشمها فقال له: ما هذه السخلة تشمها؟ فقال: هذه بنتي. فقال: والله لقد وُلد لي بنون ووأدتُ بنيات ما شممت منهن أنثى ولا ذكرًا قط. فقال رسول الله ﷺ: فهل إلا ينزع الله الرحمة من قلبك.[٢٤]

وقال النبي أيضًا في بعض كلامه: «الجنة تحت أقدام الأمهات.»[٢٥] وبعد أن رفع النبي محمد كما قدمنا منزلة المرأة الأدبية خوَّلها حقوقًا واسعة لم تخطر على بال أحد من المتشرعين العصريين كالفرنسويين مثلًا أو سواهم.

إن البنات بحسب الشريعة المحمدية يرثن عن آبائهن وأمهاتهن، ثم إن الشريعة حرمت على الوالدين السلطة المطلقة على البنات فلا يستطيعون التصرف بشئونهن قبل بلوغهن سن الرشد، وبعد أن تبلغ البنات الرشد يجوز لهن التزوج بمن يخترنه لنفوسهن بعلًا بقطع النظر عن موافقة والديهن، والزواج بدون إرادتها يعد لاغيًا فاسدًا غير شرعي وهن يتمتعن بجميع الحقوق المدنية ويستطعن الاشتغال بأية مهنة شريفة يردنها ويعقدن السندات سواء لهن أو عليهن.[٢٦]

ثم إن الشريعة السمحاء خولت المرأة المتزوجة جميع الحقوق المدنية، فهي تدبر شئونها وممتلكاتها بنفسها مستقلة بذلك عن زوجها الذي لا يحق له أن يلزمها بعمل أمر من الأمور قط عدا إرضاع أطفالها، وإنما هي مرغمة لزوجها بالعفة المطلقة والطاعة ضمن حدود معلومة، وإذا شاءت إرادتها الاعتناء بتدبير شئون منزل زوجها وممتلكاته فإنما تأتي ذلك مخيرة يدفعها إلى ذلك حبها الحقيقي له. ثم إن كل خصام يحدث بينهما ينبغي أن يُنظر ويحل بواسطة مؤتمر عائلي مؤلف من حَكَم من أهله وحكم من أهلها، قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللهُ بَيْنَهُمَا﴾. والشريعة السمحاء خولت للنساء حق الإرث عن أزواجهن وأولادهن، وأمرت الشريعة أيضًا بأن يكون عقد الزواج مبنيًّا على الحب الحقيقي فقال جل شأنه: ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ﴾، وهو مؤسس على فروض شرعية مقدسة تجعله محترمًا معلومًا لدى الجميع، وقد جاء في القرآن الكريم: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾. أجل إنه يسوغ نقض عقد الزواج لأن الشريعة أباحت الطلاق وإنما ضمن حدود معلومة حيث ينبغي أن يكون مبنيًّا على أسباب شرعية، ويتحتم على الرجل في جميع أحوال الطلاق (ما عدا طلاقه زوجته بسبب خيانتها وعدم صون عرضها) أن يدفع لها نفقة العدة لمدة ثلاثة أشهر على الأقل، وأباحت الشريعة للمرأة المطلقة أن تبقي لديها أولادها الصغار، وفي مثل هذه الحالة حتمت على الرجل أن يدفع لها نفقة لتنفقها على تربية الأولاد. قدمنا أن الشريعة أباحت الطلاق ولكنها من جهة أخرى حقرته وأبغضته، فقد جاء في الحديث الشريف: «أبغض الحلال عند الله الطلاق.»

ثم إن الشريعة حتمت على الأزواج أن يعيشوا مع زوجاتهن على أتم وفاق ووئام، قال الله تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ۞ وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا ۚ أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ۞ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾. ثم إنه يتحتم على الأزواج أن يتساهلوا مع زوجاتهن ويصفحوا عن الزوجة التي تسقط في الضلال وتمزق شعار طهارتها وعفتها.

ثم أوضحت الشريعة أيضًا بأنه لا يجوز إدانة الزوجة بالزنا لمجرد الشك أو النميمة أو السماع، وإنما ينبغي أن ينظر قضية إدانة الزوجة بالزنا مجلسٌ عائلي يتثبت من الأمر بشهادة أربعة شهداء عدول مشهود لهم بطهارة الذمة والأمانة وعدم الميل لغرض من أغراض القضية المرفوعة، وقبل إصدار الحكم يدعوها المجلس إلى التوبة والرجوع عن غيها وضلالها، قال الله في كتابه العزيز: ﴿وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ ۖ فَإِن شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ۞ وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنكُمْ فَآذُوهُمَا ۖ فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا ۗ إِنَّ اللهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾.

أفليس هذا الكلام يطابق كل المطابقة لتعليم نبي الله الآخر (عيسى) عن المرأة الزانية؟ أوَليس أيضًا كان سماع مثل هاته الآيات البينات صعبًا على أولئك الأعراب البرابرة المتوحشين الذين كانوا يرجمون نساءهم بالحجارة لأقل حادث أو إثم بسيط؟[٢٧]

ولننتقل الآن إلى الكلام على تعدد الزوجات، فقد سبق لنا القول بأنه عند ظهور النبي كان أمر تعدد الزوجات منتشرًا انتشارًا هائلًا في البلاد العربية والبلاد المجاورة لها، ولم يكن في الإمكان إزالة هذه العادة التي رسخت في أفئدة القوم منذ أجيال عديدة، ويظهر أن تلك العادة كانت من مطالب الحياة الضرورية لأهل الشرق ولا يمكنهم أن يستغنوا عنها أو يعيشوا بدونها، وينسبون أسباب انتشارها بين الشرقيين إلى المناخ وتركيب بنية أجسامهم. ولكن مع ذلك فقد أصلح الإسلام هذه العادة وصنع كثيرًا للشرق بشأنها، فقد عين أولًا بأن عدد الزوجات الشرعيات ينبغي أن يكون أربعة، وحصر هذا التعيين ضمن حدود معلومة يصعب على الإنسان تعديها أو القيام بما جاء فيها، ولذلك فإذا تأملناها فإننا نجدها تفضي إلى الزواج بواحدة، ورأس هذه الحدود أنه يتحتم على الرجل أن يعدل بين جميع زوجاته، ونحن إيضاحًا لذلك نكتفي بإيراد مجمل أقوال المفسرين لكلمة «العدل» كالإمام فخر الرازي والملَّا فتح الله وغيرهما: ينبغي على الرجل

أن يطلق العدل ليس فقط على علاقاته الخارجية مع زوجاته، أي الإنفاق عليهن على السواء، كلا بل يجب على الرجل أن يعدل في محبته بين نسائه، وهل هذا أمر مستطاع يا ترى؟ وقد أجاب القرآن الشريف على هذا السؤال بقوله تعالى: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِن تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾. ولذلك كان العدل بين النساء من رابع المستحيلات يؤدي بالذين يتزوجون بأكثر من واحدة إلى ارتكاب الخطيئة وتعدي حدود الله، فما العمل أيضًا لقاء هذا الأمر؟ وعلى هذا السؤال أيضًا يجيب القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا﴾.

إن الآيات التي أوردناها تدل دلالة واضحة على أن الإسلام مؤيد للزواج بواحدة، وهذا أمر مما لا ريب فيه، وأنه سيأتي يوم عندما يدرك المسلمون فيه روح دينهم وجوهره سينبذون عادة تعدد الزوجات ويقبلون من نفوسهم على أمر الاكتفاء بزوجة واحدة، ولذلك فيخطئ كتاب الأوروبيين خطأً جسيمًا باتهامهم القرآن ومحمدًا بعداء نصف الجنس البشري — أي المرأة — ويخطئون أيضًا بنسبتهم جمود المسلمين ونقائصهم إلى الدين، مع أنهم لو أنصفوا ونطقوا بالحقيقة المجردة عن كل غرض سيئ لرأوا أن هذه النقائص وجدت من نفسها في العالم وأن دين أولئك الكتاب — أي النصرانية — يقاومها مقاومة عنيفة متواصلة.

أما القرآن فقد قام بعمل خطير جدًّا، فإنه رفع شأن المرأة وأعلى منزلتها وخولها حقوقًا لم يسمع بمثلها في الشرق مطلقًا، فإنه جعلها أمًّا وزوجة بعد أن كانت أَمَة ليس لها كرامة أو مقام معروف. وقد أدركت النساء مقدار الحقوق التي خولتها إياها الشريعة الغراء، فتمسكت بها وحافظت عليها ودافعت عنها دفاعًا شديدًا ولم تخش بسببها بأس أحدٍ، يدلنا على ذلك الرواية الآتية التي رواها الملَّا فتح الله في تفسيره القرآن العزيز حيث جاء فيه ما نصه: «بعد وفاة النبي وقف ذات يوم الإمام عمر في المسجد يخطب في الناس، وأظهر في خلال خطبته أنه يروم إبطال عادة دفع المهر للزوجة، فقامت إحدى النساء الحاضرات في المسجد وخاطبت الخليفة بصوت جهوري قائلة: «يا أمير المؤمنين إنك لا تستطيع أن تحرمنا ما أنعم به علينا الله ورسوله» فرجع الخليفة عن عزمه.»

وما أجهل وأظلم أولئك الذين يتهمون النبي محمدًا بإحداثه الحجاب وأمره به لأتباعه، فالحجاب وجد في الشرق قبل النبي بمدة طويلة، ومحمد لم يأمر به ولم يضعه

على طريقته المتعارفة اليوم بين المسلمين، والحجاب أيضًا لم يكن معروفًا عند العرب الأحرار، والتاريخ يدلنا دلالة واضحة لا تدع شكًّا في نفس مرتاب على أن نساء النبي ونساء خلفائه كُن يتبعن أزواجهن في أسفارهم وغزواتهم، وعائشة زوجة النبي قادت الجنود بعد وفاته. وقد انتشر الحجاب بين العرب بعد وفاة النبي بمدة طويلة عندما اختلطوا بالشعوب الأخرى في أثناء فتوحاتهم، وأخذت أخلاقهم وعاداتهم بعد ذلك تفسد رويدًا رويدًا بسبب ذلك الاختلاط وما جنوه من الثروة الواسعة التي قادتهم إلى معيشة البذخ والترف.

وقد استحسن العرب الحجاب عند الأمم التي خالطوها فأخذوه عنها وعملوا به فحجبوا نساءهم، ولكنهم بالغوا في ذلك كل المبالغة وألبسوه لباس الدين ولم يراعوا سوء عاقبته على المرأة، واستندوا في إحداث هذه العادة على آيتين وردتا في القرآن الكريم وقد اتخذهما الجهلة والمدَّعون بالعلم إلى يومنا هذا سلاحًا حادًّا يحاربون به أولئك المجاهدين في سبيل إطلاق حرية المرأة من سجنها الأبدي، فإحدى الآيتين نزلت بشأن زينة النساء قال الله تعالى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾، والآية الثانية هي آية الحجاب.

ومما لا مراء فيه هوان عرب البادية في زمن النبي، حتى في عصرنا الحالي لم يكونوا متفننين في استنباط الأزياء المختلفة المتعارفة الآن بين الناس، فكان هؤلاء المتوحشون يحضرون إلى مجلس النبي زرافات رجالًا ونساء وهم نصف عراة تقريبًا، وكانوا يخاطبونه بجرأة قائلين: حدثنا يا محمد عن ربك. وكانت مثل هذه العبارات تؤثر في نفس النبي تأثيرًا شديدًا، ولكن لم يكن له مفر من محادثتهم لأن دعوته كانت تحتم عليه المداخلة في جميع شئون العرب حتى الطفيفة منها، فكان يضطر في مثل هذه الحالة أن يتجه إلى السماء ملتمسًا الآيات من لدن ربه، فنزلت الآية بشأن الزينة وهي: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ * وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾.

فأخذ العرب بعد ذلك يغطون نصف جسمهم الأسفل وبقي النصف الأعلى مكشوفًا أي الصدر والعنق والرأس، فاضطر أيضًا النبي أن يتجه ثانية إلى السماء فنزلت عليه آية الحجاب وهي: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ﴾، فأخذت النساء بعد ذلك يحجبن رءوسهن وأسدلن الحجاب على صدورهن وأعناقهن تخلصًا من شمس بلاد العرب المحرقة.

قالت الكاتبة التركية الشهيرة في كتابها المسمى (نساء المسلمات المشهورات): «إن الأعمال العظيمة لا تستطيع مرور الأيام أن تقضي على شهرتها ونفعها، ولذلك فلا يستطيع أحد مهما اختلفت مبادئه وفسدت أهواؤه أن ينسب إلى النبي شيئًا لا سيما في ما فعله للمرأة.» وأردفت كلامها بقولها: «والتاريخ أعدل شاهد يشهد لنا بأن النساء على عهد النبي وخلفائه كن يحضرن مجالس الرجال بكل حرية ويختلطن بهم ويقابلن الضيوف من الجنسين ويخرجن معهم للتنزه في الشوارع، وكن يأتين المساجد وجميع الأندية العامة.»

ومما يروى عن عائشة — رضي الله عنها — أنها قالت: «إن أسماء بنت أبي بكر دخلت على رسول الله ﷺ وعليها ثياب رقاق فقال لها: يا أسماء، المرأة إذا بلغت المحيض لم يصلح أن يرى منها إلا هذا وهذا، وأشار إلى وجهه وكفيه.» وفي رواية أخرى أن فاطمة ابنة النبي جاءت إلى الخليفة أبي بكر بعد وفاة والدها واعترضت على كلامه السابق.

وروى بعض الثقات أنه كانت عادة في أيام النبي، وهي أن الأرامل الحديثات السن كن يتعهدن المجالس العامة للتعارف بالرجال لعلهن يجدن منهم لهن أزواجًا، وكانت هذه العادة تعرف عندهم باسم (تدشمون) (كذا في الأصل الروسي)، ولم ترق هذه العادة في عيون بعض الشيوخ الأتقياء لأن الأرامل كن يظهرن فيها متبرجات، فجاء بعض الشيوخ إلى النبي وشكوا إليه أمر تلك الأرامل، فأجابهم بما مؤداه: ليس في استطاعتي حرمانهن ما أنعم به عليهن سبحانه جل شأنه.[٢٨] ثم إننا نصادف في صدر الإسلام عددًا وافرًا من النساء اللاتي انقطعن إلى الخطابة في المساجد والمجتمعات العامة والدعوة إلى الإسلام، ثم والتدريس أيضًا فيما بعد.

ثم إننا نعتقد اعتقادًا متينًا بأن ما أوردناه من الأدلة الساطعة كاف لدحض آراء أولئك المدعين بالعلم الذين ذهبوا في تأويل كلام الله العزيز كل مذهب حسبما أملته عليهم أهواؤهم وأغراضهم الفاسدة، فنشروا بين الناس على توالي الأعوام اعتقادًا رسخ في القلوب رسوخ الجبال الرواسي: وهو أن الإسلام أحدث أمر الحجاب على الطريقة التي

هو عليها الآن، وقد أفضى ذلك إلى الاعتقاد بأن محمدًا والقرآن من أشد أعداء الجنس اللطيف الألداء، وهو أمر بعيد عن الحقيقة بُعد الماء عن السماء، ومحمد براء من هذا الافتراء. وإننا سنوضح للقراء فيما بعد طريقة انتشار الحجاب بين المسلمين ووصوله إلى الحد الذي نراه اليوم بيننا.

وقد شعرت نساء العرب بعلو المنزلة التي رفعهن إليها النبي محمد فقدرنها حق قدرها وانعطفن إليه كل الانعطاف وتعلقن به تعلقًا شديدًا، وقد قال أرنست رنان: «إن النبي محمدًا كان يرتاح ارتياحًا شديدًا لانعطاف النساء إليه ويتأسى به عما كان يلحقه من الإهانات العديدة في بدء دعوته، فقد أبصرته النساء مطرودًا مهانًا فتبعنه وخدمنه وتعلقن به تعلقًا شديدًا. وقد اشتهرت في صدر الإسلام عدة من النساء الفاضلات، فبعد عمر وعلي أشهر خلفاء صدر الإسلام قامت امرأتان لا ينكر جهادهما وأعمالهما الخطيرة أحدٌ، وهما عائشة وفاطمة. ثم إن شعار القداسة كان يخفق مشرقًا حول خديجة، وقد عدت العبدة بلال أيضًا بين كواكب ذلك العصر الذهبي. ا.هـ.»

ثم إننا نقسم تاريخ المرأة بين المسلمين إلى أربعة أدوار عامة: الدور الأول من عهد النبي إلى الخلافة الأموية، والثاني من الخلافة الأموية إلى السلطنة التركية، والثالث تاريخها في السلطنة التركية، والدور الرابع سقوط المرأة النهائي. ففي الدور الأول اتصفت المرأة بالأخلاق الحميدة والطباع القويمة والسيرة الحسنة والإقدام على الأعمال الخطيرة والاستشهاد في سبيل الدين والدعوة إليه والميل إلى الشِّعر وجودته، ثم إن نساء هذا الدور من حيث ارتقاء الشعور وسمو الأخلاق والإقدام على الأعمال المجيدة يشبهن نساء صدر الديانة النصرانية اللاتي اشتهرن بالتدين الزائد وترقية نظام المعيشة العائلي وصنع البر والإحسان والاستعداد التام في كل آونة لاحتمال كل شيء في سبيل الدين.

فقد اشتهرت خديجة بثروتها الواسعة واسمها الرفيع ومنزلتها السامية وعيشتها الراقية، ومع ذلك فقد تزوجت بالرغم عن إرادة أقاربها الأقوياء الأشداء بذلك الرجل الأمي الذي لم يحرز شهرة تُذكر، الخاضع للشياطين والأبالسة (كما اتهموه)، ذلك الرجل الوضيع والمصلح الجريء الذي تجرأ أن يقلب شئون البلاد العربية وأحوالها الماضية والحاضرة ويغيرها تغييرًا عظيمًا، الأمر الذي لم يكن يخطر على بال أحد. ومما لا مراء فيه هو أن خديجة لعبت دورًا مهمًّا في جميع أدوار حياة النبي لما كان لها عليه من التأثير الحسن. ثم إن الضرورة التي تدعونا إلى درس الحوادث الماضية للوقوف على حقيقتها قد أوجدت لنا سؤالًا لا بد منه، وهو: ماذا كان يحدث للإسلام لو لم توجد هذه

الفاضلة التي أنارت فجر دعوة النبي محمد؟ فكم من مرة عاد إليها مضطربًا تعبًا مهانًا مستهزَأً به وقد صغرت نفسه وأُنهك جسده وفؤادُه يكاد يتمزق حزنًا لعدم تصديق الناس دعوته!

وكانت تمده بآرائها الصائبة وأفكارها الثاقبة وتبدي له مزيد الانعطاف والهشاشة والبشاشة، فشددت بذلك عزيمته وبثت في فؤاده روح النشاط والهمة للمجاهرة بدعوته التي عدها العرب في بادئ الأمر جنونًا وقالوا إن به شيطانًا، ولا ريب أن محمدًا كان أحد أولئك المصلحين العظام الذين حالفهم الحظ حتى صدقت به النساء قبل الرجال، وذلك يدلنا دلالة واضحة على طيب سريرته وارتقاء صفات المحبة والإخلاص في فؤاده. وخديجة أول من صدقت دعوته ولبثت مخلصة له ومعضدة طول أيام حياتها، وبعد وفاتها كان النبي يذرف الدموع لدى ذكرها ويخفق فؤاده حزنًا وألمًا.[٢٩] ونزيد القراء علمًا في إفاضة الكلام عن هذه المرأة الشريفة التي لما رأت ما انطوى عليه محمد من الصفات الجليلة أرسلت وعرضت نفسها عليه، مع أنه كان كل من قومها يتمنى أن يتزوجوا بها فلم يقدروا، وقد أتى محمد مع أعمامه إلى أبيها خويلد وخطبها إليه ثم تزوجها وكان عمره إذ ذاك ٢٥ سنة وعمرها ٤٠ سنة وقيل خمسة وأربعون وقيل غير ذلك، فولدت له أولاده كلهم إلا إبراهيم، وقيل الذي زوجها عمها عمرو بن الأسد لأن أباها مات قبل الفجار.

ولما ابتدأ الوحي يبدو للنبي ﷺ بواسطة جبريل كان متخوفًا من ذلك، وأخبر خديجة فقالت: «أبشر فلن يخزيك الله أبدًا، إنك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتؤدي الأمانة وتحمل الكل وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق»، ثم انطلقت به إلى ابن عمها ورقة بن نوفل وكان قد تنصر وقرأ الكتب وسمع أهل التوراة والإنجيل فأعلمته بشأنه، وسألته خديجة بعد ذلك قائلة: يا ابن العم أتستطيع أن تخبرني بصاحبك هذا الذي يأتيك إذا جاء؟ قال: نعم. فجاءه جبرائيل فأعلمها، فقالت: قم فاجلس على فخذي اليسرى. ففعل، فقالت: هل تراه؟ قال: نعم. قالت: فتحول على فخذي اليمنى. ففعل، فقالت: هل تراه؟ قال: نعم. فألقت خمارها ثم قالت: هل تراه؟ فقال: لا. قالت: يا ابن العم اثبت وأبشر فإنه ملَك وما هو بشيطان، فكانت خديجة أول من آمن به وصدقه. وبقيت خديجة مع النبي ﷺ ٢٤ سنة وأشهرًا ولم يتزوج عليها، وتوفيت قبل الهجرة بثلاث سنين بعد وفاة أبي طالب بثلاثة أيام، وقيل بخمسة وخمسين يومًا، وعمرها خمس وستون سنة، ودفنت بالحجون، وحزن النبي عليها ونزل في حفرتها وعظمت

عليه المصيبة بوفاة أبي طالب ثم وفاتها، وكانا من أشد المعضدين له، وروي عن النبي أنه قال: «أفضل نساء الجنة خديجة وفاطمة ومريم بنت عمران وآسية امرأة فرعون.» وروى بعض الثقات أن معاوية اشترى المنزل الذي كانت فيه خديجة وجعله مسجدًا.

وقال ابن الوردي: لما بُعث النبي ﷺ دخل على خديجة فحكى لها ما رأى، فقالت: أبشر فوالذي نفس خديجة بيده إني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة. ثم أتت خديجةُ ابن عمها ورقة بن نوفل وكان شيخًا كبيرًا، وكان قد عمي وتنصَّر في الجاهليه وكتب في التوراة والإنجيل، فلما ذكرت خديجة أمر جبريل وما رأى ميسرة فقال ورقة: إنه ليأتيه الناموس الذي أنزل على موسى، يا ليتني أكون فيها جذعًا حين يخرجه قومه. فأخبرت النبي بذلك فقال ﷺ: أومخرجيَّ هم؟ فقالت: سألتُه عن ذلك قال: نعم، لم يأت أحد قط بمثل ما جاء به إلا عودي وأوذي وإن يدركني يومه أنصره نصرًا مؤزرًا في ذلك وإن رأيت أن ترسليه لي فأخبِره عن ذلك وقال أبياتًا منها:

ووصف من خديجة بعد وصف — فقد طال انتظاري يا خديجا
بما أخبرته من قول قس — من الرهبان يكره أن يعوجا
بأن محمدًا سيسود يومًا — ويخصم من يكون له حجيجا
ويظهر في البلاد ضياء نور — يقيم به البرية أن تموجا
ألا يا ليتني إن كان ذاكم — شهدت وكنت أولهم ولوجا
رجائي في الذي كرهت قريش — ولو عجت بمنكبها عجيجا[٣٠]

ثم إن كثيرًا من نساء العرب اللاتي أسلمن كن يرفعن الشوك والحطب مما كان يضعه على الطريق التي كان يمر منها النبي وأزواجهن وإخوتهن،[٣١] وفي بدء دعوة النبي كان كثيرًا ما يصادف محاطًا بعدد عديد من النساء اللاتي كن ينفضن الرماد عن رأسه مما كان يرميه به الرجال، وبعضهن كن يربطن جراحات رجليه.[٣٢] إن أم حبيبة ابنة أبي سفيان، رأس قبيلة قريش أشرف قبائل العرب الذي كان أعظم عدو للنبي والإسلام، قد أسلمت وهاجرت بدون معرفة والدها وزوجها إلى الحبشة مع المسلمين الذين هاجروا إليها، وقد روى أبو الفداء مسألة الهجرة الإسلامية الأولى إلى بلاد الحبشة كما يأتي:

> ولما اشتد إيذاء قريش لأصحاب رسول الله ﷺ أذن رسول الله لمن ليس له عشيرة تحميه في الهجرة إلى أرض الحبشة، فأول من خرج اثنا عشر رجلًا

وأربع نسوة منهم: عثمان بن عفان ومعه زوجته رقية بنت رسول الله، والزبير بن العوام، وعثمان بن مطعون، وعبد الله بن مسعود، وعبد الرحمن بن عون، وركبوا البحر وتوجهوا إلى النجاشي وأقاموا عنده، ثم خرج جعفر بن أبي طالب مهاجرًا، وتتابع المسلمون أولًا فأولًا، فكان من هاجر من المسلمين إلى أرض الحبشة ثلاثة وثمانين رجلًا وثماني عشرة من نسوة سوى الصغار ومن ولد بها، فأرسلت قريش في طلبهم عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص وأرسلوا معهما هدية من الأدم إلى النجاشي، فوصلا وطلبا من النجاشي المهاجرين فلم يجبهما النجاشي وقال عمرو بن العاص: سلهم عما يقولون في عيسى فسألهم النجاشي فقالوا: ما قاله الله تعالى من أنه كلمة الله ألقاها إلى مريم العذراء، فلم ينكر النجاشي ذلك، فأقام المهاجرون في جوار النجاشي آمنين ورجع عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة خائبين بعد أن رد النجاشي عليهما الهدية. ولما رأت قريش ذلك وأن الإسلام قد جعل يفشو في القبائل تعاهدوا على بني هاشم وبني المطلب أن لا يناكحوهم ولا يبايعوهم، وكتبوا بذلك صحيفة وتركوها في جوف الكعبة توكيدًا على نفوسهم، وانحازت بنو هاشم — كافرهم ومسلمهم — إلى أبي طالب ودخلوا معه في شعبه، وخرج من بني هاشم أبو لهب عبد العزى بن عبد المطلب إلى قريش مظاهرًا لهم، وكانت امرأته أم جميل بنت حرب — وهي أخت أبي سفيان — على رأيه في عداوة رسول الله ﷺ، وهي التي سماها الله تعالى: حمالة الحطب؛ لأنها كانت تحمل الشوك فتضعه في طريق رسول الله ﷺ ا.هـ.

ولما عاد المهاجرون إلى المدينة بعد أن أقاموا مدة طويلة في بلاد الحبشة كانت أم حبيبة تلازم النبي، وروى ابن هشام أن قد خرج أبو سفيان حتى قدم على رسول الله ﷺ المدينة فدخل على ابنته أم حبيبة بنت أبي سفيان فلما ذهب ليجلس على فراش رسول الله ﷺ طوته عنه فقال: يا بنية ما أدري أرغبت بي عن هذا الفراش أم رغبت به عني؟ فقالت: بل هو فراش رسول الله ﷺ وأنت رجل مشرك نجس، فلم أحب أن تجلس على فراش رسول الله ﷺ. قال: والله لقد أصابك يا بنية بعدي شر، وخرج.

ومما لا ريب فيه هو أن المسلمين مديونون للمرأة بإسلام عمر بن الخطاب — رضي الله عنه — الذي دعاه أحد العلماء بحق «سيف الإسلام القاطع»، وروى عنه البكائي قال: حدثني مسعر بن كدام عن سعد بن إبراهيم قال عبد الله بن مسعود: «إن إسلام

عمر كان فتحًا وإن هجرته كانت نصرًا وإن إمارته كانت رحمة.» قال المؤلف: وقد نقل المستشرق الشهير أرنست رنان خبر إسلام عمر عن تاريخ أبي الفداء، وقد وردت تلك القصة في سيرة رسول الله ﷺ لابن هشام بتفصيل واف فننقلها إتمامًا للفائدة، وهي: قال ابن إسحاق:

وكان إسلام عمر فيما بلغني أن أخته فاطمة بنت الخطاب، وكانت عند سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل، كانت قد أسلمت وأسلم زوجها سعيد بن زيد وهم مستخفون بإسلامهم من عمر، وكان نعيم بن عبد الله النحام رجلًا من قومه من بني عدي بن كعب قد أسلم، وكان أيضًا يستخفي بإسلامه فرقًا من قومه، وكان خباب بن الأرت يختلف إلى فاطمة بنت الخطاب يقرأها القرآن، فخرج عمر يومًا متوشحًا سيفه يريد رسول الله ﷺ ورهطًا من أصحابه وقد ذكروا له: أنهم قد اجتمعوا في بيت عند الصفا، وهم قريب من أربعين ما بين رجال ونساء، ومع رسول الله ﷺ عمه حمزة بن عبد المطلب وأبو بكر بن أبي قحافة الصديق وعلي بن أبي طالب في رجال من المسلمين ممن كان أقام مع رسول الله ﷺ بمكة ولم يخرج فيمن خرج إلى أرض الحبشة. فلقيه نعيم بن عبد الله فقال: أين تريد يا عمر؟ قال: أريد محمدًا هذا الصابئ الذي فرق أمر قريش وسفه أحلامها وعاب دينها وسب آلهتها فأقتله. فقال له نعيم: والله لقد غرتك نفسك من نفسك يا عمر! أترى بني عبد مناف تاركيك تمشي على وجه الأرض وقد قتلت محمدًا؟ أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم؟ قال: وأي أهل بيتي؟ قال: ختنك وابن عمك سعيد بن زيد بن عمرو وأختك فاطمة بنت الخطاب، فقد والله أسلما وتابعا محمدًا على دينه فعليك بهما.

قال: فرجع عمر عامدًا أخته وختنه وعندهما خباب بن الأرت معه صحيفة فيها «طه» يقرأهما إياها، فلما سمعوا حس عمرَ تغيب خبابٌ في مخدع لهم أو في بعض البيت، وأخذت فاطمة بنت الخطاب الصحيفة فجعلتها تحت فخذها، وقد سمع عمر حين دنا إلى البيت قراءة خباب عليهما، فلما دخل قال: ما هذه الهينمة التي سمعتُ؟ قالا له: ما سمعت شيئًا. قال: بلى والله لقد أُخبرت أنكما تابعتما محمدًا على دينه، وبطش بختنه سعيد بن زيد، فقامت إليه أخته فاطمة بنت الخطاب لتكفه عن زوجها، فضربها فشجها، فلما فعل ذلك قالت له أخته وختنه: نعم قد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله فاصنع ما بدا لك.

> ولما رأى عمر ما بأخته من الدم ندم على ما صنع فارعوى وقال لأخته: أعطيني هذه الصحيفة التي سمعتكم تقرءون آنفًا أنظُر ما هذا الذي جاء به محمد، وكان عمر كاتبًا فلما قال ذلك قالت له أخته: إنا نخشاك عليها. قال: لا تخافي وحلف بآلهته لَيردنَّها إذا قرأها إليها. فلما قال ذلك طمعت في إسلامه فقالت له: يا أخي إنك نجس على شركك وإنه لا يمسها إلا الطاهر، فقام عمر فاغتسل فأعطته الصحيفة وفيها «طه»، فقرأها، فلما قرأ منها صدرًا قال: ما أحسن هذا الكلام وأكرمه! فلما سمع ذلك خباب خرج إليه فقال له: يا عمر والله إني لأرجو أن الله قد خصك بدعوة نبيه فإني سمعته أمس وهو يقول: (اللهم أيِّد الإسلام بأبي الحكم بن هشام وبعمر بن الخطاب)، فالله الله يا عمر. فقال له عمر عند ذلك: فدُلَّني يا خباب على محمد حتى آتيه فأسلم. فقال له خباب: هو بدار عند الصفا. فقصده عمر وهو متوشح بسيفه، فاستأذن في الدخول فأذن له رسول الله ﷺ، فلما دخل نهض إليه رسول الله ﷺ وأخذ بمجمع ردائه وجبذه جبذة شديدة وقال: ما جاء بك يا ابن الخطاب وما تزال حتى تنزل بك القارعة. فقال عمر: يا رسول الله جئت لأومن بالله وبرسوله. فكبر رسول الله ﷺ وتم إسلام عمر.

وقد اشتهرت في صدر الإسلام شهرة فائقة طبق ذكرها الخافقين فاطمة ابنة رسول الله محمد، فإنها اتصفت بلين العريكة ودماثة الأخلاق والوداعة المتناهية والتأثير الشديد الذي كان لها على الوسط الموجود فيه وعلى جميع المسلمين، واتصفت أيضًا بحياتها الداخلية العائلية وإخلاصها لزوجها وتربية أولادها، وجميع هذه الصفات السامية والسجايا الحميدة جعلتها مثال الكمال بين نساء عصرها في سائر أقطار الأرض، ونحن نقتبس شيئًا من أوصافها عن الكاتب الهندي المجيد المير علي الذي أجاد في ذكر صفاتها التي اتخذها عن أسمى المصادر وأصدقها فقال أعزه الله:[٣٣] كان النبي يحبها أكثر من كل أولاده الطاهرين وبناته الشريفات، ثم إن التربية الشريفة التي تربتها جعلتها في مصاف أعظم رجال عصرها الذين اشتهروا بالآداب وحسن السيرة، وكانت صفاتها المجيدة وأخلاقها الرضية تنمو بنموها رويدًا رويدًا، ولما بلغت السادسة عشرة تزوجها علي بن أبي طالب وكانا — عليهما السلام — يحبان بعضهما حبًّا شديدًا، ولم يزل حبهما المتبادل وحبهما لأولادهما إلى يومنا هذا خير مثال للمسلمين في حسن المعيشة العائلية. ثم إنه لم يمض ردح من الزمان على هذه العائلة الصغيرة المباركة حتى أصبحت أيضًا

خير مثال ينسج على منواله جميع معارفها والمحيطين بها. ومع أنها كانت ابنة أشرف العرب نسبًا على الإطلاق فإنها كانت بنفسها تدبر شئون بيتها المنزلية وتقوم بتربية أولادها. وقد كانت شديدة الاهتمام بأنصار والدها وأتباعه، فكانت كثيرًا ما تخطب في الناس في بيتها وفي المساجد، وخطبها الموجودة اليوم بين أيدينا تشهد لها بسمو المدارك وأصالة الرأي، وقد رفعت بذلك شأن المرأة وأعلت شرفها.

ولا يخفى أن الإسلام في بدء ظهوره (كالديانة النصرانية في أول انتشارها) كان شديد المعارضة والمقاومة لأحوال الوثنيين ومعيشتهم البالغة أقصى درجات الفساد والتبذير والبذخ، ومعلوم أيضًا أن العرب بعد ظهور دعوة النبي ازدادوا تعلقًا بعبادة الأصنام ودافعوا عنها ما استطاعوا إلى الدفاع سبيلًا، لا سيما أهل مكة وقبيلة قريش منهم خصوصًا، وقاوموا النبي مقاومة شديدة لأنه عاب دينهم وسب آلهتهم وصمم على القضاء عليها القضاء المبرم. وأما أهل المدينة فانقادوا إلى الإسلام وصدقوا ما جاء به، فارعووا عن غيهم وثابوا إلى الهدى ورجعوا عن ضلالهم. وكان لفاطمة تأثير شديد على أهل المدينة وأخلاقهم وعاداتهم، فعضدت والدها في دعوته. واشتهرت نساء المدينة في ذلك الوقت بالطهارة والعفة والاستقامة وحسن السيرة وجودة السريرة، فضارعن بجدهن ونشاطهن وقيامهن بالأعمال المجيدة وتربية أولادهن على المبادئ القويمة نساء الرومان والمرأة الإنكليزية الجديدة في عصرنا الحالي، فكن — أي نساء المدينة — يتوافدن زرافات زرافات لسماع خطب الخلفاء وتلامذتهم، وانصببن على درس التوحيد والشريعة، وكثيرات منهن كن يثقفن أولادهن دون الاحتياج إلى مساعدة أحد ويدرسنهم العلوم ويرضعنهم المعارف منذ نعومة أظفارهم، وقد اشتهرت بينهن شهرة عظيمة رابعة ريا أم أحد رجال صدر الإسلام العظام. ا.هـ.

(المعرب) رأيت من باب ذكر الحقائق التاريخية أن أزيد القراء تعريفًا بتاريخ فاطمة — عليها السلام — مما اقتبسته من التواريخ الإسلامية فأقول: ولدت فاطمة قبل ما تبني قريش الكعبة بخمس سنين، وهي أصغر بنات الرسول ﷺ، وأمها خديجة بنت خويلد، وكان النبي إذ ذاك ابن خمس وثلاثين سنة، تزوجها علي بن أبي طالب — عليهما السلام — في شهر رمضان من السنة الثانية للهجرة. روي عن أنس أنه قال: كنت عند رسول الله ﷺ فغشيه الوحي، فلما أفاق قال: يا أنس، أتدري ما جاءني به جبريل من صاحب العرش عز وجل وعلا؟ قلت: بأبي أنت وأمي ما جاءك به جبريل؟ قال لي: إن الله تبارك وتعالى يأمرك أن تزوج فاطمة من علي، فانطلق وادع لي أبا بكر وعمر وعثمان

وطلحة والزبير وبعدتهم من الأنصار. قال: فانطلقت فدعوتهم، فلما أخذوا مجالسهم قال ﷺ: «الحمد لله المحمود بنعمته، المعبود بقدرته، المطاع بسلطانه، المهروب إليه من عذابه، النافذ أمره في أرضه وسمائه، الذي خلق الخلق بقدرته، وميزهم بأحكامه، وأعزهم بدينه، وأكرمهم بنبيه محمد ﷺ، إن الله عز وجل جعل المصاهرة نسبًا لاحقًا وأمرًا مفترضًا وحكمًا عادلًا وخيرًا جامعًا، أوشج بها الأرحام وألزمها الأنام، فقال الله عز وجل: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾، وأمر الله تعالى يجري إلى قضائه، وقضاؤه يجري إلى قدره، ولكل قضاء قدر، ولكل قدر أجل، ولكل أجل كتاب، يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب. ثم إن الله تعالى أمرني أن أزوج فاطمة من علي، وأشهدكم أني زوجت فاطمة من علي على أربعمئة مثقال فضة، إن رضي بذلك على السنة القائمة والفريضة الواجبة، فجمع الله شملهما وبارك لهما وأطاب نسلهما، وجعل نسلهما مفاتيح الرحمة ومعادن الحكمة وأمن الأمة، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم.» قال: وكان علي — عليه السلام — غائبًا في حاجة لرسول الله ﷺ قد بعثه فيها، ثم أمر لنا بطبق فيه تمر فوضع بين أيدينا، فقال: انتهبوا، فبينما نحن كذلك إذ أقبل علي فتبسم إليه رسول الله ﷺ، وقال: يا علي، إن الله أمرني أن أزوجك فاطمة وإني زوجتكما على أربعمئة مثقال فضة. فقال عليٌّ: رضيت يا رسول الله. ثم إن عليًّا خرَّ ساجدًا لله، فلما رفع رأسه قال الرسول ﷺ: «بارك الله لكما وعليكما وأسعد جدكما وأخرج منكما الكثير الطيب.» قال أنس: والله لقد أخرج منهما الكثير الطيب.

وعن عليٍّ — عليه السلام — قال: إن فاطمة بنت رسول الله صارت إلى قبر أبيها بعد موته ووقفت عليه وبكت، ثم أخذت من تراب القبر فجعلته على عينها ووجهها، ثم أنشدت تقول:

ماذا على من شم تربة أحمد   أن لا يشم مدى الزمان غواليا
صبت عليَّ مصائب لو أنها   صبت على الأيام عدن لياليا

ولها — عليها السلام — ترثي والدها ﷺ:

اغبر آفاق السماء وكورت   شمس النهار وأظلم العصران
والأرض من بعد النبي كئيبة   أسفًا عليه كثيرة الأحزان

فليبكه شرق البلاد وغربها ولتبكه مضر وكل يمان
وليبكه الطود الأشم وجوه والبيت ذو الأستار والأركان
يا خاتم الرسل المبارك صنوه صلى عليك منزل القرآن

توفيت — عليها السلام — ليلة الثلاثاء لثلاث خلون من شهر رمضان سنة إحدى عشرة للهجرة وهي بنت ثمان وعشرين سنة، ودفنت بالبقيع ليلًا وصلى عليها عليٌّ — عليه السلام — وقيل: صلى عليها ونزل في قبرها هو والفضل بن عباس، وقيل: لبثت فاطمة بعد وفاة النبي — عليه السلام — ثلاثة أشهر، وقال عروة بن الزبير وعائشة: لبثت ستة أشهر، ومثله عن ابن شهاب الزهري.

روي أن عليًّا — عليه السلام — لما ماتت فاطمة وفرغ من جهازها ومن دفنها رجع إلى البيت فاستوحش فيه وجزع عليها جزعًا شديدًا ثم أنشأ يقول:

أرى علل الدنيا عليَّ كثيرة وصاحبها حتى الممات عليل
لكل اجتماع من خليلين فرقة وكل الذي دون الفراق قليل
وإن افتقادي فاطما بعد أحمد دليل على أن لا يدوم خليل

وكان يزور قبرها كل يوم، فأقبل ذات يوم فانكب على القبر وبكى بكاء مرًّا وأنشأ يقول:

ما لي مررت على القبور مسلِّمًا قبر الحبيب فلم يرد جوابي
يا قبر ما لك لا تجيب مناديًا أمللت بعدي خلة الأحباب

فأجابه هاتف يقول:

قال الحبيب وكيف لي بجوابكم وأنا رهين جنادل وتراب
أكل التراب محاسني فنسيتكم وحجبت عن أهلي وعن أترابي
فعليكم مني السلام تقطعت مني ومنكم خلة الأحباب

وأما أولادها فالحسن والحسين والمحسن، وهذا مات صغيرًا، وأم كلثوم وزينب، وزاد الليث بن سعد رقية، وماتت صغيرة ولم تبلغ، ولم يتزوج عليٌّ على فاطمة وكانت أول أزواجه، عليهما السلام.[٣٤]

وقد بلغت المرأة المسلمة في دور ارتقائها الثاني، أي في عهد الأمويين والعباسيين، شأوَ النجاح والتقدم، فأحرزت شهرة واسعة في الأعمال المجيدة وصُنع البر والخيرات الجزيلة، واتسعت دائرة عقلها: ففي أيام الدولة الأموية زاحمت الرجال في طلب جميع العلوم والمعارف وأصبحت لا تختلف عنهم في شيء مطلقًا، فانكبت على طلب الشريعة والفقه والحديث والشعر والأدب والبيان والخط، وبوجه الإجمال فإنها أحاطت بجميع فروع العلوم فأتقنتها أيما إتقان. وفي عهد هشام والوليد لم تكن النساء تختلف في شيء عن الرجال، وهذا تاريخ ابن خلكان الكاتب العربي الشهير الذي هو عبارة عن أنسيلكو بيديا مملوء بذكر عدد وافر من النساء النابغات الفاضلات وبينهن كثير من نساء الطبقة السفلى اللاتي اشتهرن بجودة الشعر وحفظ الأنساب وغير ذلك، وفي هذا العصر الزاهر كانت في مقدمة النساء شهرة سكينة ابنة الإمام حسين وحفيدة فاطمة ابنة النبي ﷺ، قال ابن خلكان: «إن سكينة كانت سيدة نساء عصرها ومن أجمل النساء وأظرفهن وأحسنهن أخلاقًا.» وقال أحد الكتاب على عهد الخلفاء المدعو دي سلان: «إن سكينة كانت أشهر نساء عصرها وأعلاهن مقامًا وأوفرهن ذكاء وعقلًا وأدبًا وإحداهن جنانًا، فأحرزت قصب السبق في مضمار الأدب والتف حولها الشعراء والأدباء.»

وقال عنها الموسيو بيرون المستشرق الفرنسي الشهير: إنها كانت «سيدة سيدات عصرها وأجملهن وأظرفهن وأسماهن صفات وأخلاقًا.»

ويظهر أنه كان لها تأثير شديد على جميع معاصريها ومعاصراتها الذين كانوا يحذون حذوها في جميع ما تضعه من العادات، حتى إنها تفننت في اختراع الأزياء، فهي واضعة الطرة السكينية المنسوبة إليها والمعروفة باسمها بين النساء إلى يومنا هذا. قال ابن مصعب: «وكانت سكينة أحسن النساء شعرًا وكانت تصفف جمتها تصفيفًا لم ير أحسن منه حتى عرف ذلك وانتشر بين النساء.» بيد أن شهرة سكينة لم تقتصر على الأزياء، بل إنها اكتسبت الشهرة بما كانت عليه من الأدب الرائع والمعارف الواسعة وحسن المحاضرة، حتى أصبح منزلها كعبة القصاد من المتشرعين والشعراء والعلماء، وحذا حذوها في ذلك كثير من نساء الطبقة العليا من مسلمي ذلك العصر الزاهر اللاتي كن يبذلن الوسع في استدعاء الشعراء إلى مجالستهن. وكانت سكينة تستقبل الزائرين وهي محاطة بجوارها الذين كانوا يتوافدون على منزلها في جميع أنحاء الخلافة بقصد محاضرتها أو التماسًا لصلاتها أو طلبًا لمساعدتها، وكانت تزين المجلس بحسن أدبها ووفرة ذكائها والأسئلة العديدة التي كانت تطرحها على الأدباء والشعراء الذين كانوا يحسبون لها حسابًا؛ لأنها كانت منتقدة ولم تكن تخشى في ذلك لومة لائم.

ثم إنه معلوم من التاريخ بأنه كانت عداوةٌ بين الخلفاء الأمويين الذين حكموا في دمشق وبين الهاشميين الذين كانت تنسب إليهم سكينة، وكانوا — أي الحكام — يحاولون إيجاد شيء يعيبون به سكينة ليحطوا من منزلها ويذهبوا بواسع شهرتها، ولكنهم لم يجدوا إلى ذلك سبيلًا. وكانت لها صداقة شديدة مع زوجة الخليفة الوليد الملقبة بأم البنين التي كانت تحترمها احترامًا شديدًا نظرًا لآدابها ووفرة معارفها. ومن نوادر سكينة مع الشعراء وغيرهم من ذلك أنها وقفت على عروة بن أذينة وكان من أعيان العلماء وكبار الصالحين وله أشعار رائقة، فقالت له: أنت القائل:

إذا وجدت أوار الحب في كبدي ذهبت نحو سقاء الماء أبترد
هبني بردت ببرد الماء ظاهرة فمن لنار على الأحشاء تتقد

فقال: نعم. فقالت: وأنت القائل:

قالت وأبثثتها سري وبحت به قد كنت عندي تحب الستر فاستتر
ألست تبصر من حولي فقلت لها غَطَّى هواك وما أَلْقى على بصري

قال: نعم. فالتفتت إلى جوار كن حولها وقالت: هن حرائر إن كان خرج هذا من قلب سليم قط.

وكانت سكينة تحب الهزل واللهو والطرب وهي من الحذق على جانب عظيم. حكي أنها حضرت مأتمًا فيه بنت عثمان بن عفان فقالت بنت عثمان: أنا بنت الشهيد. فسكتت سكينة حتى إذا أذن المؤذن وقال: أشهد أن محمدًا رسول الله قالت لها سكينة: هذا أبي أم أبوك؟ فقالت بنت عثمان: لا أفخر عليكم أبدًا.

وكانت سكينة عفيفة تجالس الأجلة من قريش وتجمع إليها الشعراء، وكانت ظريفة مزاحة، وقيل: إنه اجتمع في ضيافة سكينة يومًا جرير والفرزدق وكثير عزة وجميل صاحب بثينة ونضيب، فمكثوا أيامًا ثم أذنت لهم فدخلوا، فقعدت بحيث تراهم ولا يرونها وتسمع كلامهم، ثم خرجت جارية لها وضيئة قد روت الأشعار والأحاديث فقالت: أيكم الفرزدق؟ فقال لها: ها أنا ذا. قالت: أنت القائل:

هما دلتاني من ثمانين قامة كما انحط باز أقتم الريش كاسره

فلما استوت رجلاي بالأرض قالتا   أحـيّ نـرجـي أم قـتـيـل نـحـاذره
فقلت ارفعوا الأمراس لا يشعروا بنا   وأقـبـلـت فـي أعـجـاز لـيـل أبـادره

قال: نعم. قالت: فما دعاك إلى إفشاء السر، خذ هذا الألف دينار والحق بأهلك. ثم دخلت على مولاتها وخرجت فقالت: أيكم جرير؟ قال: ها أنا ذا. فقالت: أنت القائل:

طرقتك صائدة القلوب وليس ذا   حين الزيارة فارجعي بسلام
تجري السواك على أغرّ كأنه   بـرد تـحـدَّر مـن مـتـون غـمـام
لو كان عهدك كالذي حدثتنا   لوصلت ذاك وكان غير ذمام
إنـي أواصل من أردت وصـالـه   بـحـبـال لا صـلـف ولا لـوام

قال: نعم. قالت: أولَا أخذت بيدها وقلت لها ما يقال لمثلها؟ أنت عفيف وفيك ضعف، خذ هذا الألف والحق بأهلك. ثم دخلت على مولاتها وخرجت وقالت: أيكم كثير؟ قال: أنا. قالت: أنت القائل:

وأعـجـبـنـي يـا عـز مـنـك خـلائـق   كـرام إذا عـد الـخـلائـق أربـع
دنوك حتى يدفع الجاهل الصبا   ودفعك أسباب المنى حين يطمع
فوالله ما يدري كريم مماطل   أينسـاك إذ بـاعـدت أو يـتـصـدع

قال: نعم. قالت: ملحت وشكلت، خذ هذه الثلاثة آلاف والحق بأهلك. ثم دخلت على مولاتها ثم خرجت فقالت: أيكم نصيب؟ قال: ها أنا ذا. فقالت: أنت القائل:

ولولا أن يقال صبا نصيب   لقلت بنفسي النشأ الصغار
بنفسي كل مهضوم حشاها   إذا ظلمت فليس لها انتصار

فقال: نعم. فقالت: ربيتنا صغارًا ومدحتنا كبارًا، خذ هذه الألف والحق بأهلك. ثم دخلت على مولاتها وخرجت فقالت: يا جميل مولاتي تقرئك السلام وتقول لك: والله ما زلت مشتاقة لرؤيتك منذ سمعت قولك:

ألا ليت شعري هل أبيتنَّ ليلة　　بوادي القرى إني إذًا لسعيد
لكل حديث بينهن بشاشة　　وكل قتيل عندهن شهيد

جعلت حديثنا بشاشة وقتلانا شهداء خذ هذه الألف والحق بأهلك.

وقال ابن أبي الأزهر، قال: حدثنا حماد عن أبي عبد الله الزبيري، قال: اجتمع بالمدينة راوية جرير وراوية كثير وراوية نصيب وراوية الأحوص، فافتخر كل رجل منهم بصاحبه، وقال صاحبي: أشعِر. فحكَّموا سكينة بنت الحسين بن علي — عليهما السلام — لما يعرفونه من عقلها وبصرها بالشعر، فخرجوا يتهادون إليها حتى استأذنوا عليها، فأذنت لهم، فذكروا لها الذي كان من أمرهم، فقالت لراوية جرير: أليس صاحبك الذي يقول:

طرقتك صائدة القلوب وليس ذا　　وقت الزيارة فارجعي بسلام

وأي ساعة أحلى من الطروق قبح الله صاحبك وقبح شعره، ثم قالت لراوية الأحوص: أليس صاحبك الذي يقول:

يقر بعيني ما يقر بعينها　　وأحسن شيء ما به العين قرت

فليس شيء أقر لعينها من النكاح، أفيحب صاحبك أن ينكح؟ قبح الله صاحبك وقبح شعره. ثم قالت لرواية جميل: أليس صاحبك الذي يقول:

فلو تركت عقلي معي ما طلبتها　　ولكن طلابيها لما فات من عقلي

فما أرى بصاحبك من هوى إنما يطلب عقله، قبح الله صاحبك وقبح شعره. ثم قالت لرواية نصيب: أليس صاحبك الذي يقول:

أهيم بدعد ما حييت فإن أمت　　فوا حزنًا من ذا يهم بها بعدي

فما أرى له همة إلا فيمن يتعشقها بعده، قبحه الله وقبح شعره، ألا قال:

أهيم بدعد ما حييت فإن أمت　　فلا صلحت دعد لذي خلة بعدي

ثم قالت لراوية الأحوص: أليس صاحبك الذي يقول:

من عاشقين تراسلا وتواعدا　　ليلًا إذا نجم الثريا حلقا
باتا بأنعم ليلة وألذها　　حتى إذا وضح الصباح تفرقا

قال: نعم. قالت: قبحه الله وقبح شعره، ألا قال: تعانقا؟ قال إسحاق في خبره: فلم تثن على أحد منهم في ذلك اليوم ولم تقدمه. وذكر الهيثم بن عدي مثل ذلك في جميعهم، إلا جميلًا فإنه خالف هذه الرواية وقال: فقالت لراوية جميل: أليس صاحبك الذي يقول:

فيا ليتني أعمى أصم تقودني　　بثينة لا يخفى عليَّ كلامها

قال: نعم. قالت: رحم الله صاحبك إن كان صادقًا في شعره، وكان جميلًا كاسمه، فحكمت له. ولها غير ما ذكرنا نوادر كثيرة وأخبار رائقة ذكرها مؤرخو العرب والإفرنج، وهي تدل على علو منزلتها ومكانتها السامية في عالم الأدب. وكنا نود ذِكرها برمتها، غير أن ضيق المقام حال دون ذلك، فنختتم المقال عنها بكلام بشأنها للمير علي الكاتب الهندي الشهير حيث قال: من أعظم البراهين الساطعة الدالة على حالة المسلمين الأدبية في عصرنا الحالي، هو أن ذكر سكينة برح من أذهانهم، وطوت أيدي الزمان والنسيان على ضريحها، مع أن ضريح معاصرتها رابعة البصرية العدوية لم يزل إلى يومنا هذا مقصدًا للزائرين الذين يتوافدون إليه بقصد التبرك، وما زال الشعراء يتغزلون بمناقبها وأوصافها الحميدة كالخاقاني الشاعر الفارسي الذي يتمنى لوالدته أن تكون كرابعة في صلاحها وتقواها. وكانت وفاة سكينة بالمدينة يوم الخميس لخمس خلون من شهر ربيع الأول سنة سبع عشرة ومئة حسب رواية ابن خلكان.[٣٥]

أما رابعة فهي ابنة إسماعيل البصرية العدوية مولاة آل عتيك، كانت — رضي الله عنها — كثيرة البكاء والحزن، وكانت إذا سمعت ذكر النار غشي عليها زمانًا، وكانت تقول: «استغفارنا يحتاج إلى استغفار»، وكانت ترد ما أعطاه الناس لها وتقول: «ما لي حاجة بالدنيا»، وكانت بعد أن بلغت ثمانين سنة كأنها الخلال البالي تكاد تسقط إذا

مشت، وكان كفنها لم يزل موضوعًا أمامها، وكان موضع سجودها كهيئة الماء المستنقع من دموعها، وقال عنها ابن خلكان في ترجمتها: إنها كانت من أعيان عصرها، وأخبارها في الصلاح والعبادة مشهورة. ومن وصاياها المأثورة: «اكتموا حسناتكم كما تكتمون سيئاتكم»، وأورد لها الشيخ شهاب الدين السهرورديُّ في كتاب عوارف المعارف هذين البيتين:

إني جعلتك في الفؤاد محدثي ... وأبحت جسمي من أراد جلوسي
فالجسم مني للجليس مؤانس ... وحبيب قلبي في الفؤاد أنيسي

وذكر ابن الجوزي في كتاب صفوة الصفوة في ترجمتها ما يأتي:

كانت رابعة تصلي الليل كله، فإذا طلع الفجر هجعت في مصلاها هجعة خفيفة حتى يسفر الفجر، وكانت تقوم من مرقدها فزعة وتقول: «يا نفس كم تنامين وإلى كم تنامين، يوشك أن تنامي نومة لا تقومين منها إلا لصرخة يوم النشور»، وكان ذلك دأبها دهرها حتى ماتت. ولما حضرتها الوفاة دعت خادمتها عبدة بنت أبي شوال وقالت لها: «يا عبدة لا تؤذني بموتي أحدًا وكفنيني في جبتي هذه»، وهي جبة من شعر كانت تقوم فيها إذا هدأت العيون، قالت عبدة: فكفنتها في تلك الجبة وفي خمار من صوف كانت تلبسه.

وكان حسن البصري توفيت زوجته فأراد زوجة، فقيل له عن رابعة العدوية، فأرسل إليها يخطبها، فردته وقالت:

راحتي يا إخوتي في خلوتي ... وحبيبي دائمًا في حضرتي
لم أجد لي عن هواه عوضًا ... وهواه في البرايا محنتي
حيثما كنت أشاهد حسنه ... فهو محرابي إليه قبلتي
إن أمت وجدًا وما ثم رضا ... وأعنائي في الورى وا شقوتي
يا طبيب القلب يا كل المنى ... جد بوصل منك يشفي مهجتي
يا سروري يا حياتي دائمًا ... نشأتي منك وأيضًا نشوتي
قد هجرت الخلق جمعًا أرتجي ... منك وصلًا فهو أقصى منيتي

وكانت تقول مرة: «إلهي، ما عبدتك خوفًا من نارك ولا طمعًا في جنتك بل حبًّا لك وقصد لقاء وجهك»، وتنشد:

أحبك حبين حب الهوى ... وحبًّا لأنك أهل لذاك
فأما الذي هو حب الهوى ... فشغلي بذكرك عمن سواك
وأما الذي أنت أهل له ... فكشفك لي الحجب حتى أراك
فلا الحمد في ذا ولا ذاك لي ... ولكن لك الحمد في ذا وذاك

وكانت وفاتها في سنة ١٣٥، ذكره ابن الجوزي في شذور العقود، وقبرها يزار وهو بظاهر القدس من شرقيه على رأس جبل يسمى الطور.[٣٦]

ولننتقل الآن إلى الكلام على حالة المرأة في زمن الدولة العباسية التي قامت على إثر الدولة الأموية، فعلى عهد العباسيين أزهرت المعارف وأشرق نور العلم وبلغت المدنية العربية أقصى درجات الرقي وارتقت إلى أوج الكمال، ولكنها أخذت بعد ذلك تتدرج في الانحطاط حتى إنها تدهورت فجأة إلى حضيض السقوط والانحلال، وذلك على إثر هجوم القبائل التترية البربرية وخروجها من الشرق واكتساحها غرب آسيا وفي مقدمتها جنكزخان الفاتح العظيم.

ففي عهد الدولة العباسية لبثت النساء تلعب دورًا مهمًّا في الهيئة الاجتماعية، فكن يدرسن الفقه والتوحيد ويلقين الدروس في المدارس والبيوت. ومما يجدر التصريح به هو أن الإمام الشافعي أحد مشاهير ذلك العصر، أخذ العلم عن المرأة ثم وضع طريقته المعروفة التي هي أكثر الطرق شيوعًا بين المسلمين السنيين.

غير أننا إذا أمعنا النظر في حالة المسلمة في ذلك العهد وتعمقنا في البحث عن عيشتها الداخلية وأطوارها، نرى أن سوس الفساد أخذ يظهر في جسم ارتقائها فقاده إلى الانحلال التدريجي، فكما أن المدنية العربية بلغت على عهد العباسيين أوج الكمال ثم سقطت فجأة وانعكست، وكذلك المرأة فإنها أحرزت نصيبًا وافرًا من العلوم والآداب والتهذيب، ولكنها أخذت بعد ذلك تتدرج في الانحلال شيئًا فشيئًا، وقد حدث ذلك على إثر الثروة الواسعة التي أحرزها العباسيون بسرعة، وقد دلت شواهد عديدة على أن الغنى الفجائي يفضي بصاحبه إلى فساد الأخلاق والجنوح إلى الراحة والتبذير في المعيشة والإقلاع عن الجد والنشاط.

وقد أثر هذا الانقلاب تأثيرًا شديدًا على الدولة العباسية وأصاب المرأة منه سهمٌ صائبٌ خرق جسم كمالها وأدى بها إلى الانحلال كما قدمنا، وقد كان للفرس والسوريين اليد الطولى في هذا الانحلال وذلك الانقلاب؛ إذ لا يخفى على الناقد البصير أن الفرس لعبوا دورًا مهمًّا في الخلافة العباسية فكانوا أصحاب الحول والطول والسيادة المطلقة، ومن الأقوال المأثورة بهذا الشأن: «إن دولة الفرس كانت دائمًا أبدًا تستعبد فاتحيها.» وهذا التاريخ الموجود بين أيدينا يدلنا دلالة واضحة على أن الملك إسكندر العظيم وخلفاءه السلجوقيين الذين مدوا لواء سلطتهم فوق ربع القسم الغربي من مملكة الفرس لم يغيروا شيئًا من عادات البلاد وأخلاق أهاليها، بل أبقوا القديم على قدمه وساروا في أحكامهم وأعمالهم على منهج ملوك الفرس، ونسج على منوالهم في ذلك الخلفاءُ العباسيون الذين أخذوا قادة جنودهم من مرازبة الفرس، وهؤلاء بثوا في الجنود — بحكم الطبيعة — روح العادات والأميال الفارسية، ثم إن رجال البرامكة الفرس تربعوا في دست الوزارة واصطفى منهم الخلفاء أعز أخصائهم والمقربين إليهم. والواقف على أعمال البرامكة يرى أن جميع الأحكام كانت بيدهم يديرونها كيفما شاءوا، قال المسعودي المؤرخ المشهور: «ولما أفضت الخلافة إلى الرشيد دعا بيحيى بن خالد فقال له: يا أبت، أنت أجلستني في هذا المجلس ببركتك ويمنك وحسن تدبيرك، وقد قلدتك الأمر. ودفع خاتمه إليه»، وفي ذلك يقول الموصلي:

ألم تر أن الشمس كانت سقيمة فلما ولي هارون أشرق نورها
بيمن أمين الله هارون ذي الندى فهارون واليها ويحيى وزيرها

ثم إن مدينة بغداد بنيت على طراز مدينة المدائن، وأكثر قصور بغداد الشامخة بنيت على مثال قصور أمهات المدن الفارسية، وجلبت جميع مواد بنائها وزخارفها من آثار قصور الفرس المتهدمة. وقد انتشرت في أيام الدولة العباسية اللغة الفارسية، وكان الخلفاء يتنافسون بإدخال الموسيقى والعادات والآداب الفارسية إلى قصورهم، وساروا في نظامها فنبذوا العادات العربية واحتقروها احتقارًا وكرهوها كراهة شديدة، ونقول بوجه الاختصار إن الفرس انتقموا من العرب لأنهم أخضعوهم واكتسحوا بلادهم وسلبوا مجدهم وأذهبوا سطوتهم وحرموهم استقلالهم، فإنهم — أي الفرس — أفسدوا الإسلام بإدخالهم عليه الطريقة الشيعية وكثيرًا من العقائد الفاسدة، ويا ليتهم وقفوا عند هذا الحد بل إنهم تجاوزوه إلى إفساد عادات العرب أولئك الأقوام المعبر عنهم بسكان القفار

أو بنصف متوحشين، الذين أخضعوا لسلطتهم نصف العالم المعروف في ذلك الزمان. وقد لبثت سيادة الفرس مبسوطة زمنًا طويلًا، فإن الساسانيين منهم أخضعوا لسلطتهم الخلفاء العباسيين كهارون الرشيد والمهدي وغيرهما من الخلفاء العلويين، وهذا التيار الشديد جذب بقوته المرأة المسلمة التي سلبها دون أن تشعر تلك الأوصاف الحميدة التي اتصفت بها وأعلت منزلتها ثم قذف بها إلى أدنى دركات السقوط والانحلال، وقد سبق لنا القول بأن أمر تعدد الزوجات والحجاب وُجدا عند الفرس من أقدم الأزمان، وقد أيدتهما تقاليدهم القديمة وأمرت بها كتبهم المقدسة.

وفي عهد الدولة العباسية قامت النساء بتربية البنات وتثقيف المرأة وإرضاعها لبان الآداب والمعارف، فكان الناس لا يأخذون مدرِّسة أو مهذبة لبناتهم إلا من النساء اللاتي أحرزن نصيبًا وافرًا من العلوم والفن الكتب الجليلة الفائدة، وكان المتمولون من العباسيين والسراة يتزاحمون مزاحمة شديدة على أمثال أولئك النساء ويبذلون النفس والنفيس في سبيل الحصول عليهن للقيام بتعليم وتهذيب بناتهم، فكانوا يقدرون أعمالهن حق قدرها ويبدون لهن جميع أنواع الإكرام والاحترام.

وكانت المدرسات يعلمن بنات الأشراف والأعيان في بادئ الأمر القراءة والكتابة وفن الموسيقى والآداب الاجتماعية، حتى إذا برعن فيها يتفرغن إلى إيقافهن على أسرار اللغة العربية بفروعها كالبيان والمعاني والبديع وقرض الشعر والمنطق وغيرها من العلوم العالية، وكثيرًا ما كانوا يقيمون الاحتفالات لامتحان البنات اللاتي يتخرجن في العلوم على أيدي النساء، وكان يقوم بامتحانهن العلماء والقضاة، فيلقون عليهن الأسئلة العديدة بالعلوم والحساب ويناقشونهن بمواضيع مختلفة، وكانت أمثال هؤلاء الفتيات إذا كبرن وتزوجن وأصبحن مستقلات بأنفسهن ينشئن في منازلهن قاعات فسيحة يستدعين إليها الشعراء والعلماء والأدباء، وكن يتزاحمن في ذلك مزاحمة شديدة ويتنافسن منافسة عظمى عادت عليهن بالشهرة الواسعة والصيت المجيد، وبذلك نسجن على منوال نساء الغرب النابغات في هذا العصر، ثم تحولت كل قاعة من تلك القاعات إلى مدرسة جامعة كان يقصدها كل يوم عدد وافر من الشعراء والأدباء والظرفاء للمناقشة في العلوم المختلفة. وقد طرأ على أثر ذلك بعض الانقلاب في معيشة المرأة المسلمة حيث أصبحت تتحمل مشقات وأتعابًا شديدة لدى مقابلتها الوافدين على قاعتها عدا ما يستغرقه ذلك من الزمن. وقالت فاطمة علية الكاتبة التركية الشهيرة بهذا الشأن: «بلغ التفنن في الملابس مبلغًا عظيمًا وبذلت المرأة وسعها في استنباط الأزياء الجديدة حتى كانت تكلفها الحلل التي ترتديها عند مقابلة زائريها المبالغ الباهظة.»

وكانت المرأة على استعداد تام في كل آونة لاستقبال وفود زائريها من عمال وموظفين ومعارف وغيرهم، ثم إنها استنبطت وسيلة تكفيها شر مئونة تلك الأتعاب والاستعدادات ولا تحرمها لذة تلك الاجتماعات، فأحدثت الحجاب (پرده) على مثال نساء سوريا وبين النهرين والفرس، وكانت تجلس وراء ذلك الحجاب وتستقبل من شاءت من الزائرين، وكان إنشاء الحجاب بدء سقوط المرأة بين العرب، فإن هذا الحجاب أخذ يتدرج في الكثافة شيئًا فشيئًا حتى أصبح بمرور الأيام (كسور الصين المنيع) حاجزًا حصينًا بين الرجال والنساء، وكانت للرجال اليد الطولى في هذا الأمر الذين حذوا به حذو الأمم التي أخضعوها كالفرس والسوريين، وأخذوا عنها هذه العادات الفاسدة التي راقت في أنظارهم وسرت بها نفوسهم، وفي هذه الفترة التي نبحث فيها — أي القرنين التاسع والعاشر — أصبح السراة والأغنياء يقطنون القصور الفخيمة التي كانت تقسم إلى قسمين: القسم الأول يختص بالرجال ويحتوي على قاعة للاستقبال وقاعة الأعمال، والقسم الثاني يختص بالنساء ويحتوي على سلاملك وقاعة استقبال العلماء وغرف النوم، وإليك وصف دور الأعيان في ذلك الزمان كما رواه المؤرخون: وأما دور المتمولين وأهل النعمة، فإنها ثلاثة أقسام يجمعها سور واحد، وهي مقاصير الحرم وحجرات الخدم ومجلس السلام، وهي بمكان عظيم من الزينة، وفي وسط دورها جنان يزرع فيها البقل والرياحين والرمان وغير ذلك، وعلى جدرانها وسقوفها نقوش في رسم ملون أو فسيفساء ذهب، وعلى دائر الأبواب كتابة يتخذونها من الزجاج المقطع ويحوطونها بخشب أسود من الأبنوس وغيره، ويعلقون عليها رسومًا من النحاس تمثل غصونًا وأثمارًا وأزهارًا فتمتلئ العين ارتياحًا من النظر إلى إشراقها.[٣٧]

وقد أطلقوا على النصف الثاني اسم «الحرم»، ولكن الحرم في ذلك العهد كما قالت فاطمة علية لم يكن مماثلًا للحرم الفارسي المسمى (أندبون) ولا لليوناني المسمى (هينيكي)، بل لم يكن يفرق في شيء عن غرف مجلس السلام عند النساء الأوروبيات في أيامنا الحاضرة، فكانت المرأة تستقبل فيه زائريها بلا فرق بين الجنسين، وكانت تقيم فيه الليالي والحفلات الأدبية وهي في ذلك لا تزعج زوجها ولا تؤخره عن القيام بأعماله في قسمه المخصص له في المنزل، وعلى هذا المثال كانت المرأة تقدر نفسها حق قدرها وتعرف مقدار منزلتها في الهيئة الاجتماعية. ولمزيد الإيضاح نذكر لمعًا من تاريخ بعض النساء اللاتي اشتهرن في ذلك العصر، ونرى ما كان لهن من المنزلة السامية والمكانة الرفيعة والتأثير الشديد على الرجال: فمنهن أم سلمة زوج السفاح التي كان لها تأثير شديد على

زوجها وصدته مرارًا كثيرة عن سفك الدماء، ولم يكن يفعل شيئًا دون استشارتها وأخذ رأيها، قال المسعودي عنها في تاريخه مروج الذهب ما يأتي:

> وذكر مصعب الزبيري قال: كانت أم سلمة بنت يعقوب بن سلمة بن عبد الله بن الوليد بن المغيرة المخزومي عند عبد العزيز بن الوليد بن عبد الملك فهلك عنها، ثم كانت عند هشام فهلك عنها، فبينا هي ذات يوم إذ مر بها أبو العباس السفاح، وكان جميلًا وسيمًا، فسألت عنه فنُسب لها، فأرسلت له مولاة لها تعرض عليه أن يتزوجها وقالت لها: «قولي له هذه سبعمئة دينار أوجه بها إليك»، وكان معها مال عظيم وجوهر وحشم، فأتته المولاة فعرضت عليه ذلك فقال: أنا مملق لا مال عندي، فدفعت إليه المال فأنعم لها به وأقبل إلى أخيها فسأله التزويج فزوجه إياها فأصدقها خمسمئة دينار وأهدى مئتي دينار ودخل عليها من ليلته، وحظيت عنده وحلف أن لا يتزوج عليها ولا يتسرى، فولدت منه محمدًا وريطة وغلبت عليه غلبة شديدة حتى ما كان يقطع أمرًا إلا بمشورتها وبتأميرها، حتى أفضت الخلافة إليه فلم يكن يدنو إلى النساء غيرها لا إلى حرة ولا إلى أمة، ووفى لها بما حلف أن لا يغيرها.

ومن نساء العباسيين الشهيرات الملكة خيزران زوجة المهدي، فإنها تداخلت في الأحكام، وقد اتفق جميع المؤرخين على أن جميع الأعمال المجيدة والأفعال الحميدة التي اصطنعها المهدي وإنشاءه معاهد العلم التي أكسبته الشهرة الواسعة، جميعها منسوبة إلى تأثير زوجته خيزران عليه وتحريضها إياه على القيام بها، وكانت تستقبل في دار الخلافة جميع العمال والحكام والعلماء والشعراء، وقد تعلق بها الناس تعلقًا شديدًا وأنزلوها من سويداء قلوبهم منزلة سامية، وذلك بالنظر لما كانت تصطنعه من أعمال البر كإغاثة الملهوف ومساعدة المعوزين وكثرة صدقاتها، وقد قدمها الخليفة المهدي على جميع نسائه لما لها من الأدب واللطف، وقد أخذت بقلبه مكانة عظمى وولدت له موسى الهادي وهارون الرشيد، وقد تقدمت أيضًا في خلافة ولدها موسى الهادي حتى إنها شاركته في الأحكام من كثرة تداخلها معه في أمور المملكة، قال المؤرخ المسعودي: وكان الهادي كثير الطاعة لأمه الخيزران مجيبًا لها فيما تسأل من الحوائج للناس، فكانت المواكب لا تخلو من بابها، ففي ذلك يقول أبو المعافى:

يا خيزران هناك ثم هناك إن العباد يسوسهم ابناك

ومن أعمالها الجليلة أنها أنشأت في دار السلام مسجدًا محكم البنيان فسيح الأرجاء ذا رونق وبهاء، وقد وصفه المؤرخون كما يأتي: وأنشأت خيزران مسجدًا فائق الحسن وصحنه من حجارة سود شديدة البصيص تصف الأشجار كالمرآة، وعلى جدرانه صور تفافيح وثمار وغصون تخيل للوافد على المسجد أنه بين شجر زاه زاهر في روض باه باهر والعملة قد تقلدوا فيها رسوم الأعاجم على أنسجتهم، حتى جاءت الحجارة توهم الرائي أنها بُسط حملت من طبرستان ولا فرق بينها إلا فرق ما بين الصوف والحجر.[٣٨]

ولبثت خيزران معززة مكرمة عند الرشيد والمأمون إلا أنها اقتصرت في آخر أيامها عن التداخل في الأحكام، حتى أدركتها الوفاة في سنة ١٧٣ وأخرجت باحتفال عظيم لم ينله غيرها من نساء الخلفاء، رحمها الله تعالى.[٣٩]

ومن نساء الإسلام اللاتي اشتهرن في الخلافة العباسية زبيدة بنت جعفر بن المنصور العباسي وعلية ابنة المهدي العباسية، أما زبيدة فهي زوجة الخليفة هارون الرشيد وابنة عمه، ويكفي لشهرتها الفصول العديدة المخصصة لها في كتاب ألف ليلة وليلة، وقد اعتنى الكتاب الشرقيون والغربيون بدرس تاريخها والتنقيب عن أعمالها ووضعوا في ترجمة حالها الكتب الضخمة، ونحن نقتصر على ذكر أهم الأعمال التي عملتها.

لم يمض على زواجها ردح من الزمان حتى التف حولها عدد عديد من العلماء والمغنين والكتاب والأدباء الذين لقبوها «سيدة» لكثرة عطائها وشدة اعتنائها بهم، وقد زادت في رونق مدينة بغداد وعظمتها فأنشأت الملاجئ للغرباء والتكايا للفقراء وشادت الحمامات الكثيرة وأباحت الدخول إليها لمن شاء، وأقامت المساجد الكثيرة والأروقة وغير ذلك من المباني الفخيمة، ولم تقتصر أعمالها على مدينة دار السلام، بل كانت ترمم وتعمر التكايا والمساجد المتداعية إلى الخراب في جميع أنحاء الخلافة الواسعة، وقد خلدت لها الذكر المجيد بجرها الماء إلى مكة المكرمة وتسمى إلى اليوم عين زبيدة، فقال ابن الجوزي بهذا الصدد: إنها سقت أهل مكة الماء بعد أن كانت الراوية عندهم بدينار، وإنها أسالت المياه عشرة أميال بحط الجبال ونحت الصخور حتى غلغلته من الحل إلى الحرم، وعملت عقبة البستان فقال لها وكيلها: يلزمك نفقة كثيرة، فقالت: اعملها ولو كلفت مشربة الفأس دينارًا. وكان لها مئة جارية يحفظن القرآن ولكل واحدة ورد عشر القرآن، وكان يسمع في قصرها كدوي النحل من قراءة القرآن. وتزوج بها الرشيد سنة ١٦٥ هجرية وكان يحبها كثيرًا ويكرمها غاية الإكرام، وكانت شديدة البر به والاحتفاظ

على رضاه، ولم يكن يمنع عنها شيئًا من كل ما تطلبه من نفقة وما يتعلق بها وبغيرها مما يسرها وينفعها.

وكانت هي ذات معروف وخير وفضل ونفقة واسعة على البر وأصحاب الحاجات، وقد طبقت شهرتها الخافقين فكانت عريقة في الشرف، فإنها جمعت شرف الخلافة من أطرافها: فأبوها ابن خليفة وعمها المهدي خليفة وزوجها أشهر الخلفاء وابنها خليفة أيضًا، وجاء في دائرة المعارف بشأنها ما يأتي: وأما حجة زبيدة المشهورة فقيل أنفقت فيها في بناء المساجد والصدقات ألف ألف وسبعمئة ألف دينار، ولها آثار كثيرة من مثل ذلك تدعى الزبيدية نسبة إليها، منها بركة في طريق مكة بين المغيتة والعذيب بها قصر ومسجد عمرتها من مالها ومحلات ببغداد مشهورة أيضًا باسمها. ولكثرة مالها وسعة نفقتها ضرب المثل الحريري بقوله: «لو حبتك شيرين بجمالها وزبيدة بمالها.» وقد كثرت عنها الحكايات والروايات الخرافية، قال محمد بن الفضل: وكان المأمون يوجه إلى أم جعفر زبيدة في كل سنة مئة ألف دينار جددًا وألف ألف درهم، فكانت تعطي أبا العتاهية منها مئة دينار وألف درهم، فأغفلته سنة، فرفع رقعة إلى محمد بن الفضل وقال له: ضعها بين يديها، فوضعها وكان فيها:

خبروني أن في ضرب السنةْ	جددًا بيضًا وصفرًا حسنةْ
سككًا قد أحدثت لم أرها	مثل ما كنت أرى كل سنةْ

فقالت: إنا والله أغفلناه، فوجهت إليه بوظيفة على يدي ابن الفضل المذكور، وكانت وفاتها ببغداد في جمادى الأولى سنة ٣١٦ هجرية، رحمها الله تعالى.

أما علية ابنة المهدي المعروفة بالعباسة، فهي أخت هارون الرشيد، كانت من أحسن نساء زمانها وجهًا وأظرفهن خلقًا وأوفرهن عقلًا، ذات صيانة وأدب بارع، وكان الرشيد يبالغ في إكرامها واحترامها، وكانت شاعرة تحسن الغناء وتوقيع الألحان، ولها ديوان شعر، وكان الرشيد لا يستطيع مفارقتها ساعة واحدة، وكانت تحضر مع زبيدة في مجلس الرشيد أثناء مقابلاته الرسمية ومحاضرته العلماء والأدباء.

وقد قدمنا سابقًا أن الفرس لعبوا دورًا مهمًّا في الخلافة العباسية حيث احتكروا فيها لنفوسهم المناصب السامية، وبذلوا وسعهم في إدخال جميع أخلاق وعادات الفرس إلى البلاد. وقد نبغت الدولة الساسانية وأخصها الأسرة البرمكية التي علا شأنها في أيام هارون الرشيد، الذي أطلق لهم العنان وخولهم السلطة المطلقة في البلاد، وذكر جمال

الدين الأتابكي في تاريخه النجوم الزاهرة أن الرشيد قال ليحيى: «قد قلدتك أمور الرعية وأخرجتها من عنقي فولِّ مَن رأيت وافعل ما تراه وسلم إليه خاتم الخلافة.» ثم إن الرشيد عهد بقيادة الجنود العامة إلى جعفر البرمكي نجل كبير وزرائه، الذي تعلق قلبه بحب العباسة وصادف منها مثل ذلك، فتشاكيا الهوى وتبادلا عبارات الوجد والنوى، وقد اختلف المؤرخون في هذه الرواية اختلافًا بينًا بحيث يضل معه الإنسان عن الحقيقة، فنذكرها نحن نقلًا عن المسعودي حيث قال: «قال الرشيد لجعفر بن يحيى: ويحك يا جعفر، ليس في الأرض طلعة أنا بها آنس ولا إليها أميل وأنا بها أشد استماعًا وأنسًا مني برؤيتك، وإن للعباسة أختي مني موقعًا ليس بدون ذلك، وقد نظرت في أمري معكما فوجدتني لا أصبر عنك ولا عنها، ورأيتني ناقص الحظ والسرور منك يوم أكون معها، وكذلك حكمي في يوم كوني معك دونها، وقد رأيت شيئًا يجتمع به السرور وتتكاثف لي به اللذة والأنس. فقال: وفقك الله يا أمير المؤمنين وعزم لك على الرشد في أمورك كلها. قال له الرشيد: قد زوجتكما تزويجًا تملك به مجالستها والنظر إليها والاجتماع بها في مجلس أنا معكما فيه.

فزوجه الرشيد بعد امتناع كان من جعفر إليه في ذلك، وأتي فأشهد له من حضره من خدمه وخاصة مواليه، وأخذ الرشيد عليه عهد الله ومواثيقه وغليظ أيمانه أنه لا يخلو بها ولا يجلس معها ولا يظله وإياها سقف بيت إلا وأمير المؤمنين الرشيد ثالثهما، فحلف له جعفر على ذلك ورضي به وألزمه نفسه، وكانوا يجتمعون على هذه الحالة التي وصفنا وجعفر في ذلك صارف بصره عنها مزور بوجهه هيبة لأمير المؤمنين ووفاء بعهده وأيمانه ومواثيقه على ما وافقه الرشيد عليه. وعلقته العباسة واستمالت أم جعفر بالهدايا من نفيس الجواهر والمال الكثير، فأدخلتها عليه ذات ليلة وهو سكران، فلما قضى إليه حاجته قالت له: كيف رأيت حيل بنات الملوك؟ قال: وأي بنات الملوك تعنين، وهو يرى أنها من بنات الملوك؟ فقالت: أنا مولاتك العباسة بنت المهدي. فوثب فزعًا قد زال عنه سكره وفارقه عقله، فأقبل عليها وقال: لقد بعتني بالثمن الرخيص وحملتني على المركب الوعر وانظري ما يئول إليه حالي، وانصرفت مشتملة منه على حمل، ثم ولدت غلامًا فوكلت به خادمًا من خدمها يقال له رياش، وحاضنة تسمى برة، فلما خافت ظهور الخبر وانتشاره وجهت الصبي والخادم والحاضنة إلى مكة وأمرتها بتربيته» (انتهى بتصرف).

قال المؤلف: وقد انتقد المؤرخون هذه النقطة من تاريخ هارون الرشيد وأمر تزويجه لهما ذلك الزواج على الطريقة التي ذكرناها آنفًا، فكانا يجتمعان كل يوم وينظران بعضهما حتى بلغ منهما الحب مبلغًا وافرًا، وكانت نفساهما تضربان على وتر واحد، وقال بعض المؤرخين: إن الرشيد لحظ ذلك منهما، وكان يجد لذة خاصة فيما يكابدانه من لواعج الغرام. وأما عرسهما فقد وصفه المؤرخون وصفًا فخيمًا يقف مطالعه عنده وقفة الذهول والدهش، ولم تزل تضرب الأمثال بفخامته إلى يومنا هذا، غير أن الحبيبين لم يستطيعا صبرًا، فاجتمعا وتواصلا وكان من أمرهما ما كان، وأخيرًا أوصلت الألسنة النمامة ذلك الخبر إلى الرشيد الذي عندما حققه استشاط غيظًا وأضاع رشده، فأمر بقتل جعفر واعتقل أباه في السجن ومزق شمل البرامكة بعد أن قتل منهم خلقًا كثيرًا، وقد ضربت الأمثال في الشرق بنكبة البرامكة واتخذها الشعراء موعظة يعظون بها أولئك الناس الذين يفترون بهذه الدنيا الزائلة ويأمنون شر غوائلها، فمن ذلك ما قاله الرقاشي:

إن يغدر الزمن الخئون بنا فقد   غدر الزمان بجعفر ومحمد

وقال أبو العتاهية:

قولا لمن يرتجي الحياة أما   في جعفر عبرة ويحياه

وقال المنذر بن المغيرة:

ولما رأيت السيف جندل جعفرًا   ونادى مناد للخليفة في يحيى
بكيت على الدنيا وزاد تأسفي   عليهم وقلت الآن لا تنفع الدنيا

واشتهرت أيضًا في الخلافة العباسية قطر الندى زوجة الخليفة المعتضد، فإنها أنشأت في قصرها حلقة كانت تجتمع فيها الأديبات الفاضلات ونوابغ النساء؛ حيث كن يتناقشن في المواضيع العلمية المختلفة، ويتطارحن الأسئلة العديدة. ولما توفي زوجها وأفضت الخلافة بعده إلى ابنها المقتدر الحديث السن تداخلت في الأحكام وأصبح أمر العقد والحل بيدها، فكانت تقابل بنفسها بحضور الوزراء وأرباب المناصب سفراء الدول الأجانب، وقد كتب عنها المؤرخ العربي السيوطي، المشهور بالتدين والتعبد الذي

كتب حوادث القرن السادس عشر ما يأتي: «وفي عام ٣٠٦ هجرية (الموافقة سنة ٩١٨ مسيحية) أنشأت أم المقتدر مستشفى وخصصت لنفقته السنوية سبعة آلاف دينار، وفي هذه الأثناء صار الأمر والنهي لحرم الخليفة ولنسائه لركاكته، وآل الأمر إلى أن أمرت أم المقتدر بمثل القهرمانة أن تجلس للمظالم وتنظر في رقاع الناس كل جمعة، فكانت تجلس وتحضر القضاة والأعيان وتبرز التواقيع وعليها خطها. ا.هـ.»

وقد مالت نساء ذلك العصر بكليتهن إلى طلب العلم والأدب، بقطع النظر عن مركزهن والطبقة التي ينسبن إليها، فإن فخر النساء كانت تلقي دروسًا في التوحيد والفقه في مدارس بغداد، ونحن نزيد القارئ تعريفًا بها بذكر ترجمة حياتها كما رواها المؤرخون:

> هي فخر النساء شهدة بنت أبي نصر أحمد بن الفرج بن عمر الأبري الكاتبة الدينورية الأصل البغدادية الموطن والوفاة، كانت من العلماء المحدثات الصادقات بالرواية، وكتبت الخط الجيد وسمع عليها خلق كثير، وكان لها السماع العالي ألحقت فيه الأصاغر بالأكابر. سمعت من أبي الخطاب نصر بن أحمد بن الطبراني وأبي عبد الله الحسين بن أحمد بن طلحة النعالي وطلحة بن محمد الزيني وغيرهم، وقد اشتهر ذكرها وبعد صيتها وألفت جملة رسائل في الحديث والفقه والتوحيد ومآثرها كثيرة في أصناف العلوم. وكانت وفاتها ببغداد سنة ٥٧٤ هجرية، ودفنت بباب البزر، وقد نيفت عن تسعين سنة من عمرها، رحمها الله تعالى.[٤٠]

ومنهن أم الخير فاطمة وأم إبراهيم الأسداني (كذا)، كانتا تلقيان دروسًا في التوحيد والفقه. وأما السيدة نفيسة فقد أخذ الإمام الشافعي الحديث عنها وصلتْ عليه في دارها، وإننا نذكر لمحة من ترجمة حياتها كما رواها ابن خلكان:

> هي السيدة نفيسة ابنة أبي محمد الحسن ابنة زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب — رضي الله عنهم أجمعين — دخلت مصر مع زوجها إسحاق بن جعفر الصادق — رضي الله عنه — وقيل: دخلت مع أبيها الحسن، وإن قبره بمصر ولكنه غير مشهور، وإنه كان واليًا على المدينة من قبل أبي جعفر المنصور. وكانت نفيسة من النساء الصالحات التقيات، ويروى أن الإمام الشافعي — رضي الله عنه — لما دخل مصر حضر إليها وسمع عليها الحديث، وكان

للمصريين فيها اعتقاد عظيم، وهو إلى الآن باق كما كان، ولما توفي الإمام الشافعي — رضي الله عنه — أدخلت جنازته إليها وصلتْ عليه في دارها، وكانت في موضع مشهدها اليوم ولم تزل به إلى أن توفيت في شهر رمضان سنة ثمان ومئتين. ولما ماتت عزم زوجها المؤتمن إسحاق جعفر الصادق على حملها إلى المدينة ليدفنها هناك، فسأله المصريون بقاءها عندهم، فدفنت في الموضع المعروف بها الآن بين القاهرة ومصر عند المشاهد، وهذا الموضع يعرف يوم ذاك بدرب السباع، فخرب الدرب ولم يبق هناك سوى المشهد وقبرها معروف بإجابة الدعاء عنده.

وقال المقريزي: وكانت نفيسة من الصلاح والزهد على الحد الذي لا مزيد عليه، فيقال إنها حجت ثلاثين حجة، وكانت كثيرة البكاء تديم قيام الليل وصيام النهار، فقيل لها: ألا ترفقين بنفسك؟ فقالت: كيف أرفق بنفسي وأمامي عقبة لا يقطعها إلا الفائزون. وكانت تحفظ القرآن وتفسيره، وذكر أن الإمام الشافعي — رضي الله عنه — زارها وقال لها: ادعي لي، وكان صحبته عبد الله بن الحكم. وقيل إنها كانت فيمن صلى على الإمام الشافعي، ويقال إنها حفرت قبرها وقرأت فيه مئة وسبعين ختمة، وإنها لما احتضرت خرجت من الدنيا وقد انتهت في حزبها إلى قوله تعالى: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾، ففاضت نفسها مع قوله: «الرحمة»، وقال مثل ذلك الشيخ محمد الصبان في كتابه إسعاف الراغبين، وقال السخاوي في كتاب المزارات: إن سبب قدوم السيدة نفيسة إلى مصر أنها حجت ثلاثين حجة، وفي الحجة الأخيرة توجهت مع زوجها إلى بيت المقدس فزارت قبر الخليل إبراهيم، وأتت مع زوجها مصر في رمضان سنة ثلاث وتسعين ومئة، وكان لقدومها إلى مصر أمر عظيم، تلقاها الرجال والنساء بالهوادج من العريش، ونزلت أولًا عند كبير التجار بمصر وهو جمال الدين عبد الله بن الجصاص وكان من أصحاب المعروف والبر، فأقامت عنده شهورًا يأتي إليها الناس من سائر الآفاق للتبرك، ثم تحولت إلى مكانها المدفونة به وهبه لها أمير مصر السري بن الحكم، وقد أقبل على زيارتها في الحياة وبعد الممات خلق كثير لا يحصون من العلماء والخلفاء والأولياء وغيرهم، وقيل إن الحنفي كان يقول عند زيارتها: «السلام والتحية والإكرام من العلي الرحمن على نفيسة الطاهرة المطهرة سلالة البررة وابنة علم العشرة الإمام حيدرة، السلام عليك يا ابنة الحسن المسموم أخي الإمام الحسين سيد الشهداء المظلوم، السلام عليك يا ابنة فاطمة الزهراء وسلالة خديجة الكبرى، رضي الله تبارك

وتعالى عنك وعن جدك وأبيك، وحشرنا في زمرة والديك وزائريك، اللهم بما كان بينك وبين جدها ليلة المعراج اجعل لنا من همنا الذي نزل بنا انفراج، واقض حوائجنا في الدنيا والآخرة يا رب العالمين.» وكان بعض زائريها يقول عند مشهدها:

يا رب إني مؤمن بمحمد وبآل بيت محمد بتوال
فبحقهم كن شافعًا لي منقذًا من فتنة الدنيا وشر مآل

وكان بعضهم يقول أيضًا:

يا بني الزهراء والنور الذي ظن موسى أنه نار قبس
لا أوالي قط من عاداكم إنهم آخر سطر في عبس

وبعد وفاتها صارت أرباب الدولة تبني ضريحها الشريف تبركًا بمقامها المنيف، فمنهم ذات الحجاب المنيع والقدر الرفيع والدة السلطان الملك العادل سيف الدين أبي بكر بن أيوب، أنشأت رباطًا بجوارها والملك الناصر محمد بن قلاوون أمر بإنشاء جامع بخطبة وشيد بناءه، ولما توفي الخليفة أمير المؤمنين أبو العباس أحمد بن العباس المعروف بالأسمر أمر السلطان الناصر أن يدفن بالمشهد النفيسي، فدفن هناك وأقيمت عليه قبة.

وبالإجمال فإن المرأة في زمن الخلافة العباسية وغيرها لم تكن تمتاز في شيء عن الرجال، فكانت متمتعة بالحرية المطلقة ولم يطالب أحد بالضغط عليها. قال الأمير أسامة في بعض مذكراته: إن والدته وشقيقته كانتا تسيران إلى جنبه كتفًا لكتف وهما مدججتان بالسلاح وتعضدانه في الإغارة على الصليبيين، وفي أيام خلافة المنصور كانت بين جنود الحملة التي أرسلها على القسطنطينية ابنتا عمه اللتان حملتا السلاح كبقية أفراد الجنود.

ولكن بمزيد الأسف نقول إنه كلما كان يزداد تأثير رجال الفرس في الخلافة العباسية كانت حالة المرأة تزداد تعاسة، وأصبح مؤرخو ذلك العصر لا يذكرون نوابغ النساء إلا نادرًا، وقد أخذ الحجاب يتكاثف شيئًا فشيئًا حتى أصبح لا يمكن الوصول إليه، وحلت دولة الأغوات المنكودة التعيسة وسادت مملكة الحرم وانتشرت الفتن واستغلبت على النساء الزينة والتضمخ بالعطر وتزجيج الحواجب وزاد الضغط على المرأة، فبعد أن كانت تثقف عقلها بالعلوم والآداب، وبعد أن كان شخصها محطًّا للاحترام والإكرام

والتأثير الحسن على الوسط الموجودة فيه، خضعت بكليتها لعيشة «الحرم» التي قادتها إلى الخمول والجمود والكسل وجرت عليها الويل والثبور وعظائم الأمور.

ويظهر أن الطبيعة مالت إلى جهة المرأة وأخذت تدافع عنها وتحميها، فانتقمت لها من المسلمين وأخذت بثأرها منهم. إن تلك الحالة التي أفضت إليها المسلمة هي أظلم نقطة في تاريخها وأشدها تعاسة ونكدًا؛ لأنها لم تقتصر على إفساد أخلاقها، بل أخضعتها خضوعًا أعمى لسلطان الحرم السافل وبثَّ في نفسها روح النميمة وضروب النفاق والشقاق، وسادت — كما قدمنا — عليها دولة الأغوات الذين ارتفع شأنهم وكثرت مداخلتهم في أعمال الخلافة، وانتشرت على إثر ذلك الويلات كالتسميم والطعن بالخناجر وأنواع قتل النفوس البريئة سرًّا، وكثرت أيضًا ثورات رجال القصور، وطغت الجندية واستبدت بما لها من القوة وشدة البطش. وقد تطرق روح هذا الفساد إلى الأدب والفلسفة حتى قضي عليهما القضاء المبرم، فساد التكهن على الفلسفة الحقيقية المبنية على العلم الراجح والثقة الوطيدة بها، وانتشرت بين الناس أيضًا العقائد الفاسدة القائلة بالتجلي ومواصلة الأرواح، وتحولت الآداب إلى خرافات فاسدة، فأصبح ذلك العقل الضعيف المظلم يسعى إلى الحقيقة الضائعة بواسطة الخرافات والرموز الخالية عن المعنى والمبنى وغير ذلك من ضروب الجهل والإجراءات الدنيئة، كما نرى ذلك بأجلى بيان بين المدعين بالعلم وفقهاء هذا العصر. وإنما لبثت التقاليد القائلة بإطلاق حرية المرأة محفوظة بين أولئك الأقوام الذين لم تضغط عليهم قوة التأثير الفارسي الجائح، ونعني بهم أقوام التتر الترك وعرب الأندلس.

أما المرأة التترية التركية فإنها كانت قبل ظهور الإسلام متمتعة بالحرية المطلقة، الأمر الذي كان لا بد منه لقوم رحَّل يسكنون الخيام ويتنقلون دائمًا من جهة إلى أخرى، ويكونون في تنقلاتهم هذه معرضين في كل دقيقة لطوارق الحدثان المختلفة، وكانت المرأة بينهم عضد الرجل القوي ورفيقته الأمينة تقاسمه السراء والضراء، وبناء على ذلك كانت تتمتع بجميع حقوق الرجال. وإذا ألقينا اليوم نظرة على المرأة التترية التركية نراها بين سكان الحضر منهم أو المتمدنين مستعبدة استعباد الرقيق ومضغوطًا على حريتها ضغطًا شديدًا، بينما نراها متمتعة بالحرية بين أقوام التتر الرحل لا تعرف معنى لحجاب النساء وسجنهن، وقد جاء الإسلام مؤيدًا لتلك الحالة التي وجدت فيها المرأة التترية قبل ظهوره؛ حيث لبثت على حالتها تتمتع بجميع ضروب الحرية إلى أن اختلط التتر بالفرس الذين أفسدوا أخلاقهم واقتبس الأولون عنهم عادة حجاب المرأة.

وتأييدًا لكلامنا نوجه التفات القارئ إلى مطالعة رحلة ابن بطوطة المولود في طنجة الرحالة العربي الشهير الذي ساح في آسيا في أوائل القرن الثالث عشر وزار السلطان أوزبيك خان في مدينة استرخان، ولدى الوقوف عليها يقف القارئ وقفة الذهول والاندهاش لدى اطلاعه على ما كان للمرأة المسلمة من المنزلة السامية وما كانت تتمتع به من الإكرام والاحترام والحرية المطلقة بين تتر ذلك العصر.

وقد رأينا أن نكفي القارئ مئونة البحث والتنقيب، فننقل له وصف ابن بطوطة لحالة المرأة في ذلك الزمان فقال: أما السلطان المعظم محمد أوزبيك خان فهو سلطان عظيم المملكة شديد القوة كبير الشأن رفيع المكان قاهرًا لأعداء الله، ومن عادته أن يجلس يوم الجمعة بعد الصلاة في قبة تسمى قبة الذهب مزينة بديعة، وهي من قضبان خشب مكسوة بصفائح الذهب وفي وسطها سرير من خشب مكسو بصفائح الفضة المذهبة وقوائمه فضة خالصة ورءوسها مرصعة بالجواهر، ويقعد السلطان على السرير وعلى يمينه الخاتون طيطغلي وتليها الخاتون كبك وعلى يساره الخاتون بيلون وتليها الخاتون أردجي، ويقف عند أسفل السرير عن اليمين ولد السلطان تين بك وعن الشمال ولده الثاني جان بك، وتجلس بين يديه ابنته أيت كججك، وإذا أتت إحداهن قام لها السلطان وأخذ بيدها حتى تصعد على السرير. وأما طيطغلي وهي الملكة وأحظاهن عنده، فإنه يستقبلها إلى باب القبة فيسلم عليها ويأخذ بيدها، فإذا صعدت على السرير وجلست حينئذ يجلس السلطان، وهذا كله على أعين الناس دون احتجاب. ويأتي بعد ذلك كبار الأمراء فتنصب لهم كراسيهم عن اليمين والشمال، وكل إنسان منهم إذا أتى مجلس السلطان يأتي معه غلام بكرسيه. ويقف بين يدي السلطان أبناء الملوك من بني عمه وإخوته وأقاربه ويقف في مقابلتهم عند باب القبة أولاد الأمراء الكبار ويقف خلفهم وجوه العساكر عن يمين وشمال، ثم يدخل الناس للسلام الأمثل فالأمثل ثلاثة ثلاثة فيسلمون وينصرفون فيجلسون على بُعد. فإذا كان بعد صلاة العصر انصرفت الملكة من الخواتين، ثم ينصرف سائرهن فيتبعنها إلى محلتها، فإذا دخلت إليها انصرفت كل واحدة إلى محلتها راكبة عربتها، ومع كل واحدة نحو خمسين جارية راكبات على الخيل، وأمام العربة نحو عشرين من قواعد النساء راكبات على الخيل فيما بين الفتيان والعربة، وخلف الجميع نحو مئة مملوك من الصبيان، وأمام الفتيان نحو مئة من المماليك الكبار ركبانًا ومثلهم مشاة بأيديهم القضبان والسيوف مشدودة على أوساطهم وهم بين الفرسان والفتيان، وهكذا ترتيب كل خاتون منهن في انصرافها ومجيئها.

إلى أن قال: وكل خاتون منهن تركب في عربة، وللبيت الذي تكون فيه قبة من الفضة المموهة بالذهب أو من الخشب المرصع، وتكون الخيل التي تجر عربتها مجللة بأثواب الحرير المذهب، وحذيم العربة الذي يركب أحد الخيل فتى يدعى القشي، والخاتون قاعدة في عربتها وعن يمينها امرأة من القواعد أيضًا تسمى كُجُك خاتون (بضم الكاف والجيم) ومعنى ذلك الحاجبة، وبين يديها ست من الجواري الصغار يقال لهن البنات فائقات الجمال متناهيات الكمال، ومن ورائها ثنتان منهن تستند إليهن، وعلى رأس الخاتون البغطاق، وهو مثل التاج الصغير مكلل بالجواهر، وبأعلاها ريش الطواويس، وعليها ثياب حرير مرصعة بالجوهر، وعلى رأس الوزيرة والحاجبة مقنعة حرير مزركشة الحواشي بالذهب والجوهر، وعلى رأس كل واحدة من البنات (الكلا) وهو شبه الأقروف، وفي أعلى دائرة ذهب مرصعة بالجوهر وريش الطواويس من فوقها، وعلى كل واحدة ثوب من حرير مذهب يسمى النخ، ويكون بين الخاتون ١٠ أو ١٥ من الفتيان الروميين والهنديين وقد لبسوا ثياب الحرير المذهب المرصعة بالجوهر وبيد كل واحدة عمود ذهب أو فضة أو يكون من عود ملبس بهما. وخلف عربة الخاتون نحو مئة عربة، في كل عربة الثلاث والأربع من الجواري الكبار والصغار، ثيابهن من الحرير وعلى رءوسهن الكلا، وخلف هذه العربات نحو ٣٠٠ عربة تجرها الجمال والبقر، تحمل خزائن الخاتون وأموالها وثيابها وأثاثها وطعامها، ومع كل عربة غلام موكل بها متزوج بجارية من الجواري التي ذكرناها؛ فإن العادة عندهم أنه لا يدخل بين الجواري من الغلمان إلا من كان له بينهن زوجة، وكل خاتون فهي على هذا الترتيب.

ثم قال ابن بطوطة: وفي غد اجتماعي بالسلطان دخلت لزيارة الخاتون طيطغلي زوجته، فوجدتها قاعدة فيما بين عشر من النساء القواعد كأنهن خادمات لها، وبين يديها نحو خمسين جارية صغارًا يسمون البنات، وبين أيديهن طيافير الذهب والفضة مملوءة بحب الملوك وهن ينقينه، وبين يدي الخاتون صينية مملوءة منه وهي تنقيه. فسلمنا عليها، وكان في جملة أصحابي قارئ القرآن على طريقة المصريين بطريقة حسنة وصوت طيب، فقرأ ثم أمرت أن يؤتى بالقمز[٤١] فأتي به في أقداح خشب لطاف خفاف، فأخذت القدح بيدها وناولتني إياه وتلك نهاية الكرامة عندهم، ولم أكن شربت القمز قبلها ولكن لم يمكنني إلا قبوله، وذقته ولا خير فيه ودفعته لأحد أصحابي. وسألتني عن كثير من حال سفرنا، فأجبناها ثم انصرفنا عنها. وكان ابتداؤنا بها لأجل عظمتها عند الملك، وأن هذه الملكة من النساء العاقلات اللاتي يسلبن ألباب الرجال بحسن آدابهن

وتدابيرهن. وقد ملكت عقل ذلك الملك حتى صار لا يقطع رأيًا ولا يبتُّ أمرًا إلا بمشورتها. وهي من النساء المعدودات الموصوفات بفعل الخير والمبرات، ولها جملة مآثر في بلادها مثل مساجد ومدارس ومارستانات وغير ذلك من فعل الخيرات، وتوفيت قبل زوجها وأسف عليها، وكانت جنازتها أشهر ما يكون من الجنائز.

وقال الرحالة أيضًا: ثم زرت كبك خاتون زوجة السلطان أوزبك، دخلنا عليها فوجدناها على مرتبة تقرأ في المصحف الكريم، وبين يديها نحو عشر من النساء القواعد ونحو عشرين من البنات يطرزن ثيابًا، فسلمنا عليها وأحسنت في السلام والكلام، وقرأ قارئونا فاستحسنته وأمرت بالقمز فأحضر وناولتني القدح بيدها كمثل ما فعلته الملكة، وانصرفنا عنها وقد أجزلت لنا العطاء، وهكذا عادتها فإنها تكرم كل من تسمع أنه غريب، ولها مآثر حسنة وخيرات واسعة ومبرات على الفقراء والمساكين لم يسبقها عليها أحد من نساء زمانها.

ثم زرت الملكة بيلون حسب عادة تلك الديار أنه متى زار أحد الملك يلزم أن يزور أزواجه وعائلته وأكابر مملكته، فدخلنا على هذه الخاتون وهي قاعدة على سرير مرصع قوائمه فضة وبين يديها نحو مئة جارية روميات وتركيات ونوبيات منهن قائمات وقاعدات، والفتيان على رأسها والحجاب بين يديها من رجال الروم، فسألت عن حالنا ومقدمنا وعن بعد أوطاننا، وبكت ومسحت وجهها بمنديل كان في يدها رقة منها وشفقة، وأمرت بالطعام فأحضر وأكلنا بين يديها، ولما أردنا الانصراف قالت: لا تنقطعوا عنا وترددوا علينا وطالبونا بحوائجكم، وأظهرت مكارم الأخلاق وبعثت في إثرنا بطعام وخبز كثير وسمن وغنم ودراهم وكسوة جيدة وثلاثًا من جياد الخيل وعشرة من سواها.

ثم زرت الملكة أردجي، وهي من أفضل الخواتين وألطفهن شمائل وأشفقهن، وهي التي بعثت إليَّ لما رأت بيتي على التل عند جوار المحلة، ولما دخلنا عليها رأينا من حسن خلقها وكرم نفسها ما لا مزيد عليه. وأمرت بالطعام فأكلنا بين يديها، ودعت بالشراب فشرب أصحابنا، وسألت عن حالنا فأجبناها وانصرفنا من عندها ونحن شاكرون معروفها. ولها مآثر وخيرات دارَّة على مساجد وتكايا ومدارس في بلادها.

ثم زرت أيت كُجُجُك (بضم الكاف والجيمين)، فلما دخلنا عليها أمرت بإحضار الفقهاء والقضاة والسيد الشريف ابن عبد الحميد وجماعة الطلبة والمشايخ والفقراء، ورأينا منها من المكارم وحسن الأخلاق ما لم نره من سواها، وأجزلت لنا الإحسان وأفضلت، وأما معارفها وعلومها وكرمها فلم يضاهها أحد فيه سواها من نساء زمانها. ا.هـ.

ولذلك فلا عجب إذا كنا نشاهد في ذلك العصر أن المرأة أصبحت بين الشعوب الإسلامية آلة لإفساد وانقسام العائلات والإسلام، ونراها في الوقت نفسه على خلاف ذلك بين الأتراك الذين مع أنهم كانوا على جانب عظيم من الهمجية وخشونة الطباع وقساوة الأخلاق، فإنهم أظهروا ميلًا شديدًا للعلم وأناروا عالم الأدب بمصابيح ساطعة، فإن جميع أبناء تمرلنك القاسي الطباع صاحب السطوة والاسم المخيف كانوا بدورًا ساطعات في سماء الأدب والعلوم؛ فقد أنشأوا المدارس في كل مكان وشادوا مكاتب المطالعة وأسسوا المستشفيات وأكرموا العلماء واحتفوا بالأدباء. وأما النساء التتريات التركيات فإنهن اشتهرن منذ زمن بعيد حتى في عهد مجد الخلافة العباسية وارتفاع شأن المدنية العربية، فكن يدهشن العرب بما أوتينه من المواهب السامية. وفي ذلك العصر لم يكن يعرف العرب شيئًا من أحوال التتر الأتراك، بل كانت منتشرة بينهم الخرافات والإشاعات الباطلة عنهم من أنهم برابرة متوحشون، وذلك لما كان يقع بينهم وبين جنود العرب من المناوشات والوقائع في جهات أوكسوس.

وكان العرب يأسرون كثيرًا من بنات التتر ويبيعونهن في أسواق بغداد ودمشق، وكان الراغبون في مشتراهن يبذلون في سبيل ذلك الأموال الطائلة؛ لما كانت عليه التتريات من بضاضة البشرة وما اتصفن به من الأوصاف الأخرى، وكانوا يعتنون أشد الاعتناء بتعليمهن اللغة العربية وفن الغناء والتوقيع على آلات الطرب وعلم الأنساب والحساب وغير ذلك من الفنون والآداب. وكانت الفتيات على جانب عظيم من الذكاء وحدة الجنان، فكن يبرعن بسرعة في جميع تلك الفنون والعلوم، فأحرزن بذلك منزلة سامية في بيوت المتمولين والسراة، حتى إن بعض الخلفاء اتخذ منهن زوجات، والتاريخ يدلنا على أن هارون الرشيد وابنه المأمون وغيرهم من الخلفاء العباسيين كان دمهم ممزوجًا بالدم التتري التركي؛ فإن خيزران زوجة المهدي وأم الهادي والرشيد كانت تترية ونالت شهرة واسعة، حتى إنها لقبت بالأميرة ووالدة السلطان وذكر اسمها في قصائد الشعراء إلى جانب اسم الخليفة. وبعد هجوم التتر على غربي آسيا لبثت التتريات تلعب دورًا مهمًّا في مصر بين المماليك وفي آسيا الصغرى بين السلجوقيين وفي بلاد الفرس بين الأتابكيين وفي الهند أيضًا.

وأما في سوريا فإن خديجة زوجة السلطان صلاح الدين الأيوبي بطل الحروب الصليبية أنشأت في جميع أنحاء سلطنة زوجها الكليات والمدارس، وقد سميت باسمها إحدى المدارس التي أنشأتها في دمشق، ولها مآثر عديدة ومبرات كثيرة وشهرة واسعة، فلقبها معاصروها بست الشام.

ومنهن طرخان خاتون زوجة السلطان ملكشاه ووالدة السلطان محمود بن ملكشاه، كانت تدير أملاكها بنفسها واتخذت لها المستشارين والوزراء، وكان لها تأثير شديد في بلاد فارس حتى إنها أصلحت كثيرًا من عادات البلاد وأخلاق أهلها. وقد كانت من النساء العاقلات المتدينات والحكيمات المدبرات، شهدت لها التواريخ وألسنة الأقلام بالحكمة والتدبير وعلو الهمة والإقدام، وكانت مطاعة في أوامرها مسموعة الكلمة عند أمراء المملكة محبوبة لديهم، وكانت تبذل لهم العطايا والإقطاعات، وكان زوجها لا يرد لها طلبًا وهي المالكة والمشاركة له في الملك.

وكانت من حسن سياستها وتدبيرها توصلت لأن تصاهر الخليفة المقتدي بأمر الله العباسي، وذلك من كثرة ترددها على حريم الخلافة ومعها ابنتها خاتون، وهي كانت من الجمال على جانب عظيم، وصفوها للمقتدي فأحبها على الوصف وأراد الاقتران بها، فأرسل الوزير فخر الدولة أبا نصر جهير إلى السلطان ملكشاه يخطب ابنته، ولما سافر فخر الدولة إلى أصبهان ووصل إلى السلطان يخطب منه ابنته للخليفة فقال له: إن ذلك مما يزيدني شرفًا، ولكن الأمر في ذلك إلى والدتها طرخان خاتون فيجب أن تذهب إليها. وأمر نظام الملك أن يمضي معه إلى طرخان خاتون ويتكلم معها في هذا المعنى، فمضيا إليها فخاطبها فقالت: إن ملك غزنة وملوك الخانية وما وراء النهر طلبوها وخطبوها لأولادهم وبذلوا أربعمئة ألف دينار، فلم أرضَ، فإن حمل الخليفة هذا المال فهو أحق منهم. فبلغ الخبر أرسلان والدة الخليفة، فتأثرت من ذلك وأرسلت إلى طرخان تقول: إن ما يحصل لها من الشرف والفخر بالاتصال بالخليفة لم يحصل لأحد غيرها وكلهم عبيده وخدمه، ومثل الخليفة لا يطلب منه مال، فأجابت إلى ذلك وشرطت أن يكون الحمل المعجل خمسين ألف دينار وأنه لا يبقى له سرية ولا زوجة غيرها ولا يكون إلا مبيته عندها، فأجيبت إلى ذلك فأعطى السلطان يده، فعاد فخر الدولة إلى بغداد وفي محرم نقل جهازها إلى دار الخليفة على مئة وثلاثين جملًا مجللة بالديباج الرومي، وكان أكثر الأحمال من الذهب والفضة وثلاث عماريات، وعلى أربعة وستين بغلًا مجللة بأنواع الديباج الملكي وأجراسها وقلائدها من الذهب والفضة، وكان على ستة منها اثنا عشر صندوقًا من فضة لا يقدر ما فيها من الجواهر والحلي، وبين يدي البغال ثلاث وثلاثون فرسًا من الخيل الرائعة عليها مراكب الذهب مرصعة بأنواع الجواهر ومن عظيم أكسير الذهب، وسار بين يدي الجهاز سعد الدولة كواهرئين والأمير برسق وغيرهما ونثر أهل نهر معلى عليهم الدنانير والثياب، وكان السلطان خرج من بغداد متصيدًا ثم أرسل

الخليفة الوزير أبا شجاع إلى طرخان خاتون وبين يديه نحو الثلاثمئة موكبية ومثلها مشاعل ولم يبق في الحريم غرفة إلا وقد شعلت فيها الشمعة والاثنتان وأكثر من ذلك، وأرسل الخليفة مع ظفر خادمه محفة لم ير مثلها، وقال الوزير لما وصل لطرخان خاتون: إن سيدنا ومولانا أمير المؤمنين يقول إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وقد أذن في نقل الوديعة إلى داره. فأجابت بالسمع والطاعة وحضر نظام الملك فمن دونه دولة السلطان وكل منهم معه من الشمع والمشاعل شيء كثير، وجاء نساء الأمراء والكبار ومن دونهم كل واحدة منهن منفردة في جماعتها وتجملها وبين أيديهن الشموع الموكبيات والمشاعل ويحمل ذلك جميعه الفرسان، ثم جاءت الخاتون ابنة السلطان بعد الجميع في محفة مجللة عليها من الذهب والجواهر أكثر شيء، وقد أحاط بالمحفة مئة جارية من الأتراك بالمراكب العجيبة، وقد سارت إلى دار الخلافة وكانت ليلتهم مشهودة لم ير ببغداد مثلها، فلما كان الغد أحضر الخليفة أمراء السلطنة وخلع عليهم كلهم وعلى كل من له ذكر في العسكر، وأرسل الخلع إلى طرخان خاتون وإلى جميع الخواتين وعاد السلطان من الصيد بعد ذلك.

وبعدما مكثت خاتون مدة في دار الخلافة وولدت منه ولدًا لم يطب لها المقام معه، فأخبرت والدتها بذلك وهي أرسلت إلى الخليفة تطلب ابنتها طلبًا لا بد منه، وسبب ذلك أن الخليفة أكثر الإطراح لها والإعراض عنها، فأذن لها في المسير فسارت في ربيع الأول سنة ٤٨٢ وسار معها ابنها من الخليفة أبو الفضل جعفر بن المقتدي بأمر الله ومعهما سائر أرباب الدولة، ومشى مع محفتها سعد الدولة كواهرئين وخدم دار الخلافة الأكابر، وخرج الوزير وشيعهم إلى النهروان وعاد وسارت الخاتون إلى أصبهان فأقامت بها إلى ذي القعدة، وتوفيت وجلس الوزير ببغداد للعزاء سبعة أيام وأكثر الشعراء مراثيها ببغداد وبعسكر السلطان، وسار ملكشاه بعد قتل نظام الملك إلى بغداد ودخلها في الرابع والعشرين من شهر رمضان سنة ٤٨٥، واتفق أن السلطان خرج إلى الصيد وعاد ثالث شوال مريضًا وأنشب الموت أظفاره فيه، ولما توفي سترت زوجته طرخان خاتون موته وكتمته وأعادت جعفر بن الخليفة من ابنة السلطان إلى أبيه المقتدي بأمر الله وسارت إلى بغداد والسلطان معها محمولًا وبذلت الأموال للأمراء سرًّا واستحلفتهم لابنها محمود وكان تاج الملك يتولى لها ذلك، وأرسلت قوام الدولة إلى أصبهان بخاتم السلطان فاستنزل مستحفظ القلعة وتسلمها وأظهر أن السلطان أمره بذلك، ولم يسمع بسلطان مثله لم يصل عليه أحد ولم يلطم على وجهه، وكان مولده سنة ٤٧٦ وكان من أحسن الناس

صورة ومعنى وخطب له من حدود الصين إلى آخر الشام من أقصى بلاد الإسلام في الشمال إلى آخر بلاد اليمن، وحمل إليه ملوك الروم الجزية ولم يفته مطلب، وانقضت أيامه على أمن عام وسكون شامل وعدل مطرد، وما ذلك إلا باتحاده مع طرخان خاتون وعدم إتيانه أمرًا إلا برأيها ومشورتها حتى دانت لهما العباد وذلت لسلطانهما البلاد، وبعد وفاة زوجها ظهرت حكمتها وحسن تدبيرها فإنها بذلت المساعي العديدة في سبيل تمليك ابنها، وقد حدثت بينها وبين بركيارق كبير أولاد السلطان الذي كان مطالبًا بالملك وقائع كثيرة، وقد تغلبت عليه في أكثرها وحفظت الملك لابنها وبقيت في عز ورفعة ومنعة لم يقدر عليها أحد من الملوك والسلاطين وذلك بالنظر لحكمتها وحسن إدارتها، فإن جميع الأمراء كانت تحبها وتسعى في خدمتها، وكان لها جملة آثار مثل بناء مساجد وأضرحة ومدارس وبيمارستانات وخلاف ذلك في جميع أنحاء المملكة، وقد توفيت في رمضان سنة ٤٨٧ بأصبهان، فأسف الناس عليها أسفًا شديدًا — رحمها الله.

ومنهن الأميرة المسماة طرخان أيضًا زوجة أتابك سعد، فإنها بعد وفاة زوجها خلفته على المملكة وقد عضدت العلماء وأحيت العلوم والفنون، وكان لها ناد لم يؤمه إلا الأفاضل ومجلس لا يجتمع فيه إلا كل عاقل، وكان قصرها الفخيم عبارة عن دار للعلوم والمعارف، مع أن الجهل كان قد رفع لواءه في عصرها في ربوع آسيا الغربية على إثر هجوم القبائل المختلفة عليها، وفوق هذا وذاك فإنها لم تكن أول وآخر امرأة نبغت في مملكة فارس الإسلامية؛ فإن علماء خاتون من الأسرة الأتابكية قد تملكت في مدينة شيراز، وزينت هذه المدينة بالقصور الشامخة والأبنية الفخيمة ذات الرونق والبهاء، وقد وصفها المؤرخون بأنها كانت على جانب عظيم من التدين مِحِبة للشعراء والعلماء الذين كانوا لا يخلون يومًا واحدًا من قصرها وكانوا بالاشتراك معها يعقدون الحفلات الأدبية والدينية.

وقد لعبت المرأة في مصر دورًا مهمًّا وكان لها تأثير شديد على الهيئة الاجتماعية الموجودة فيها، وقد أسست إحدى النساء جامعة كبرى للعلوم دعيت باسمها وسميت «دار الحكمة» كان يدرس فيها عدا العلوم المختلفة الفلسفة والفقه والتوحيد، وقد تخرج منها امرأتان تملكتا فيما بعد في مصر وهما: ست الملك، وشجرة الدر.

أما ست الملك فكانت من أحسن نساء زمانها جمالاً وأوفرهن عقلًا وأثبتهن جنانًا وأعلاهن رأيًا وأشدهن حزمًا، شاركت أخاها الحاكم بأمر الله في الملك حتى إنه صار يقطع الأمور عن رأيها، وكلما خالفها في أمر تقوم عليه الرعية وينبذون طاعته وهو

يحسب ذلك من أخته ست الملك، حتى إنه تغير عليها وأراد قتلها، فصار يترقب الفرص وهي توجس منه خيفة إلى أن كثر ظلمه وزاد عسفه فكرهه الناس من سوء فعله، ومن شدة كراهتهم له كانوا يكتبون إليه الرقاع فيها سبه وسب أسلافه والدعاء عليه، حتى إنهم عملوا من قراطيس صورة امرأة وبيدها رقعة فلما رآها ظن أنها تشتكي، فأمر بأخذ الرقعة منها وفيها كل لعن وشتيمة قبيحة وذكر حرمه بما يكره، فأمر بطلب المرأة فقيل له إنها من قراطيس فأمر بإحراق مصر ونهبها، ففعلوا ذلك وقاتل أهلها أشد قتال مدة يومين، وفي اليوم الثالث انضاف إليهم الأتراك والمشارقة فقويت شوكتهم وأرسلوا إلى الحاكم يسألونه الصفح ويعتذرون إليه، فلم يقبل فعادوا إلى التهديد، فلما رأى قوتهم أمر بالكف عنهم، وقد أحرق بعض مصر ونهب بعضها وتتبع المصريون من أخذ نساءهم وأولادهم فابتاعوهم منه، وقد فضحت نساؤهم فازداد غيظهم وحنقهم عليه، فظن أن ذلك من أخته ست الملك لأنه بلغه أن الرجال يدخلون عليها، فأرسل يهددها بالقتل، ولما رأت سوء تصرفه وأنه ربما يطيع هواه فيقتلها أرسلت إلى قائد كبير من قواد الحاكم يقال له ابن داوس وكان يخاف الحاكم، ولما اجتمعت به اتفقت معه على قتل أخيها الحاكم وقد تم لهما ذلك، ولما أيقنت الناس بقتله اجتمعوا إلى أخته ست الملك فأجلست على كرسي الولاية علي بن الحاكم، وهو صبي لم يناهز الحلم وبايع له الناس ولقب بالظاهر لإعزاز دين الله وأنفذت الكتب إلى البلاد بأن البيعة له، وفي الغد حضر ابن داوس بأمر من ست الملك ومعه قواده، فأمرت خادمًا لها أن يضربه بالسيف فقتله وهو ينادي: يا لثأر الحاكم، فلم يختلف فيه اثنان، وقامت ست الملك تدير الدولة مدة أربع سنوات وهي تعدل بين الرعية وتنصف المظلومين حتى أحبها جميع الأهالي وتمنوا أن مدتها تدوم، وتوفيت سنة ٤١٥ هجرية وقد حزن عليها جميع أهل مصر وتمنوا بقاءها حتى يكبر ابن أخيها ولكن لله في حكمه إرادة.[٤٢]

وأما شجرة الدر فهي الملكة عصمت الدين أم خليل زوجة السلطان الصالح نجم الدين أبي الفتوح أيوب وأم ولده السلطان خليل، كانت امرأة عاقلة مهذبة خبيرة بالأمور وكان يرجع إليها بالرأي الملك الصالح أيوب ويستشيرها في مهمات الأمور، وفي أيامها حمل الملك ليودوفيك الحادي عشر الحملة الصليبية التي انتهت بالفشل وأسر فيها نفس الملك في جهات المنصورة، وقال عنها ابن إياس في تاريخه ما يأتي:

> كانت شجرة الدر تاسع من تولى السلطنة بمصر من جماعة بني أيوب، وقع الاتفاق على سلطنتها فتسلطنت في ثاني شهر صفر سنة ثمان وأربعين

وستمئة، وقبل لها الأمراء الأرض من وراء حجاب، فلما تم أمرها في السلطنة فرقت الوظائف السنية على الأمراء وفرقت الإقطاعات الثقال على المماليك البحرية، وأغدقت عليهم بالأموال والخيول وأرضتهم بكل ما يمكن، وساست الرعية في أيامها أحسن سياسة وكانت الناس عنها راضية، وكان الأمير عز الدين أيبك التركماني مدبر المملكة، وكان لا يتصرف في الأمور إلا بعد مشورتها فيما تريد، وكانت تكتب على المراسيم في العلامة بخطها «والدة خليل» فلما كان يوم الجمعة خطب باسم شجرة الدر على منابر مصر فكانت الخطباء تقول بعد الدعاء للخليفة: «واحفظ اللهم الجبهة الصالحية ملكة المسلمين عصمت الدنيا والدين ذات الحجاب الجميل والستر الجليل والدة المرحوم خليل زوجة الملك الصالح نجم الدين أيوب»، وكانت تدبر أمور المملكة في حياة أستاذها الملك الصالح، وكانت ذات عقل وحزم ومعرفة تامة بأحوال المملكة فسلطنوها لحسن تدبيرها للأمور وسياستها للرعية، ومن مآثرها الجامع الذي بنته بخط الخليفة بمصر بقرب مشهد السيدة سكينة ودفنت فيه بعد موتها وهو مقام الشعائر لغاية الآن، ولها جملة مآثر ومبان خيرية بمصر وخلافها من البلاد التي تملكت عليها.

وأما على عهد المماليك فقد لعبت المرأة أيضًا دورًا شديد الأهمية، فقد نسجت على منوال نساء بغداد، فإن نساء القاهرة كن يقمن في مجالسهن الحفلات الأدبية والموسيقية، وكانت النساء تجتمع فيها بشعراء وأدباء ذلك العصر.

ولننتقل الآن بالقارئ الكريم إلى الكلام على حالة المرأة في الهند الإسلامية ونرى ما أحرزته من الأهمية السامية والمقام الرفيع، فمنهن مهر النساء الذائعة الصيت التي طارت شهرتها حتى بلغت أوروبا، وقد وضع المؤلف الروائي الموسيو مور بشأنها رواية بديعة مثلت في أوبرا (لالا روك)، وكانت مهر النساء واقفة وقوفًا تامًّا على الآداب الفارسية والعربية، وكانت تحسن توقيع الألحان على الآلات الموسيقية وكانت تؤثر تأثيرًا شديدًا على سامعيها.

ومنهن الملكة نور جهان ابنة أحد عامة رجال الفرس الذي أصبح فيما بعد وزيرًا للملك مغول أكبر الأعظم، ثم تزوجها ابن هذا الملك المدعو داهنكير ولقبت نور جهان، ثم إنه بمساعيها اتخذ زوجها الملك إياها وإخوتها وزراء فكانوا له عضدًا قويًّا في تدبير شئون المملكة، وأحد إخوتها هو آصاف الحكيم الذي تضرب الأمثال بحكمته وسداد

آرائه وحدة جناته وتوقد فكره، ولكن في الحقيقة ونفس الواقع كانت نور جهان هي المدبرة العاملة للملكة، فإنها كانت تأمر بالخطبة في المساجد كل يوم وتضع الضرائب وتنظر في أحوال المملكة اليومية، وكانت تقابل الموظفين وأرباب الدولة، وقد كتب اسمها على النقود إلى جانب اسم زوجها، وكانت تساعد المحتاجين وتزوج الأيتام وتدفع عنهم المهر وتغيث الملهوفين وتمد الطرق العامة وتزين المدن بالمباني الفخيمة وتنشئ المدارس والمستشفيات والتكايا، وأعظم ما قامت به هو إصدارها الأوامر الصارمة للهنود تمنعهم فيها من تقديم الضحايا البشرية ودفن نسائهم وهن حيات مع أزواجهن الموتى، وهي أول من أنشأت معرضًا خيريًّا دعته «سوق الشفقة» فكانت تجتمع الأميرات وعقائل السراة والأعيان في قصرها كل عام في يوم النيروز الذي يقع في اليوم التاسع من شهر مارت ويعرضن الأشغال اليدوية الثمينة المحكمة الصنع، وكان يسوغ لكل واحد زيارة المعرض ويبتاع ما يشاء ابتياعه وعند نهاية المعرض كانت توزع إيراده الوافر على فقراء المملكة.

ومنهن خديجة بنت السلطان جلال الدين عمر بن السلطان صلاح الدين البنجالي وقد تملكت في سنة ٧٤٠ للهجرة، وكانت متزوجة بالخطيب جمال الدين فصار وزيرًا غالبًا على الأمر وعين ولده محمدًا للخطابة عوضًا عنه، ولكن الأوامر إنما تنفذ باسم خديجة، وهم يكتبون الأوامر في سعف النخل بحديدة معوجة شبه السكين ولا يكتبون في الكاغد إلا المصاحف وكتب العلم، ويذكرها الخطيب يوم الجمعة وغيرها فيقول: «اللهم انصر أمتك التي اخترتها على علم على العالمين وجعلتها رحمة لكافة المسلمين ألا وهي السلطانة بنت السلطان جلال الدين ابن السلطان صلاح الدين.»

ومن عادتهم إذا قدم الغريب عليهم ومضى إلى الدار فلا بد له أن يستصحب ثوبين فيقدم لجهة هذه السلطانة ويرمي بأحدهما ثم يقدم لوزيرها وهو زوجها جمال الدين ويرمي بالثاني، وأما عسكرها فنحو ألف إنسان من الغرباء وبعضهم وطنيون يأتون كل يوم إلى الدار فيخدمون وينصرفون، ومرتبهم الأرز يعطى لهم من البندر في كل شهر، فإذا تم الشهر أتوا الدار وخدموا وقالوا للوزير: بلغ عنا الخدمة واعلم بأنا أتينا نطلب مرتبنا، فيأمر لهم عند ذلك. ويأتي أيضًا إلى الدار كل يوم القاضي وأرباب الخطب وهم الوزراء عندهم فيخدمون ويبلغ خدمتهم الفتيان وينصرفون، وإن النساء ليفتخرن بمثل هذه الملكة حيث إنها كانت مالكة نحو ألفي جزيرة من جزائر الهنود التي يربو عدد سكانها على الأربعين مليونًا وجميعهم من المسلمين، وبقيت مالكتها مدة من الزمن

بالعدل والإنصاف، وقد طال ملكها نحو الثلاثين سنة، وفي مدتها كانت جزائرها في غاية الرونق والبهاء من كثرة الخيرات والأرزاق والأمن، وكان جميع الأهالي مكبين على الأشغال ملتفتين للأعمال محافظين على جزائرهم من الأعداء، وبارتباطهم هذا كانوا مهابين لا يدخلون أحدًا من عدوهم ساحتهم، وبقيت على ذلك إلى أن توفاها الله وأهل مملكتها راضون عنها آسفون عليها.[٤٣]

وأما ما يقال عن الأندلس التي لم يكن للفرس والسوريين تأثير فيها فإن المرأة لبثت فيها تلعب دورًا مهمًّا إلى انقراض حكم العرب في تلك البلاد الزاهرة، وكانت مساوية للرجل في جميع الحقوق لا تفرق عنه في شيء، وقد اشتهرت النساء أولًا في مدينة قرطبة على زمن الخليفتين عبد الرحمن الثالث والحكم الثاني، ثم زادت شهرتهن في مدينة غرناطة على عهد بني نصر.

إن الخليفة عبد الرحمن أقام لزوجته المحبوبة تمثالًا عظيمًا على أبواب قصر الحمراء كان مثالًا ناطقًا بارتقاء وإحكام صناعة البناء والنقش إلى الدرجة القصوى، وكانت مدينة قرطبة وسائر مدائن الأندلس مديونة لهذه الملكة بقصر الزهراء الذي هو آية في الفخامة والإبداع، وكان لها اليد الطولى في إنشائه.

أما الخليفة الحكم الثاني الذي أحرز نصيبًا وافرًا من العلوم والآداب فإنه اتخذ لنفسه كاتبة لأسراره زوجة أحد وزرائه، وعدد النساء اللاتي اشتهرن في الأندلس كثير فلا نستطيع حصره، ولكن ما لا يؤخذ كله فلا يترك جله، فإننا نذكر بعضًا من نابغاتهن:

فمنهن ولادة بنت المستكفي بالله محمد بن عبد الرحمن بن عبد الله بن الناصر لدين الله الأموي، كانت واحدة زمانها حسنة المحاورة مشهورة بالصيانة والعفاف أديبة شاعرة جزلة القول، وكانت تناضل الشعراء وتجادل الأدباء، وعمرت عمرًا طويلًا ولم تتزوج، وكان مجلسها بقرطبة منتدى لأحرار المصر وفناؤها ملعبًا لجياد النظم والنثر، وعلى سهولة حجابها وكثرة منتابها تخلط ذلك بعلو نصاب وكرم أنساب، وكان لها صنعة في الغناء، ومن أخبارها مع أبي الوليد بن زيدون كما قاله الفتح ابن خاقان في القلائد أن ابن زيدون كان يكلف بولادة ويهيم ويستضيء بنور محياها في الليل البهيم، فلما عيل صبره فر إلى الزهراء ليتوارى في نواحيها ويتسلى برؤية موافيها، فكتب إليها منها يقول:

إني ذكرتك بالزهراء مشتاقَا   والأفق طلق ووجه الأرض قد راقَا
وللنسيم اعتلال في أصائله   كأنما رق لي فاعتل إشفاقَا

إلى أن قال:

يوم كأيام لذات الهنا انصرمت بتنا لها حين نام الدهر سراقا
نلهو بما يستميل العين من زهر جال الندى فيه حتى مال أعناقا
كـأنـه أعـيـن إذ عـايـنـت أرقـي بكت لما بي فجال الدمع رقراقا

وقال في الآخر:

فالآن أحمد ما كنا لعهدكم سلوتم وبقينا نحن عشاقا

وكانت ولادة معجبة بنفسها مفتخرة على بنات جنسها، ومن زيادة إعجابها كتبت بالذهب على الطراز الأيمن من عصابتها:

أنا والله أصلح للمعالي وأمشي مشيتي وأتيه تيها

وكتبت على الطراز الأيسر:

وأمكن عاشقي من صحن خدي وأعطي قبلتي من يشتهيها

وكانت قد طالت المدة على مقابلتها لابن زيدون فهاج بها الشوق والغرام وتضاعف عندها الوجد والهيام، فكتبت إليه قائلة:

تـرقـب إذا جـن الـظـلام زيـارتـي فـإنـي رأيت الـلـيـل أكـتـم لـلـسـر
وبي منك ما لو كان بالشمس لم تلح وبالبدر لم يطلع وبالنجم لم يسر

ومن كلام ابن زيدون فيها قصيدته المشهورة التي منها:

بنتم وبنا فما ابتلت جوانحنا شوقًا إليكم ولا جفت مآقينا
تكاد حين تناجيكم ضمائرنا يقضي علينا الأسى لولا تأسينا

ولولادة حكايات ونوادر كثيرة مع الأدباء والشعراء وماتت لليلتين خلتا من صفر سنة ثمانين وقيل أربعة وثمانين وأربعمئة، رحمها الله تعالى.

ومنهن أم سلمة التي كانت تلقي دروسًا في التوحيد والفقه. ومنهن حسانة النميرية ابنة أبي الحسين الشاعر الأندلسي كانت أحسن نساء زمانها وأفصحهن مقالًا وأجملهن فعالًا، تأدبت وتعلمت الشعر من أبيها، فلما مات أبوها كتبت إلى الحكم أمير الأندلس — وهي إذ ذاك بكر لم تتزوج — بهذه الأبيات:

إني إليك أبا العاصي موجعة	أبا الحسين سقته الواكف الديم
قد كنت أرتع في نعماه عاكفة	فاليوم آوي إلى نعماك يا حكم
أنت الإمام الذي انقاد الأنام له	وملكته مقاليد النهى الأمم
لا شيء أخشى إذا ما كنت لي كنفًا	آوي إليه ولا يعروني العدم
لا زلت بالعزة القعساء مرتديًا	حتى تذل إليك العرب والعجم

فلما وقف الحكم على شعرها استحسنه وأمر لها بإجراء مرتب وكتب إلى عامله على البيرة فجهزها بأحسن جهاز، ويحكى أنها وفدت على ابنه عبد الرحمن متشكية من عامله جابر بن لبيد والي البيرة وكان الحكم قد وقع لها بخط يده تحرير أملاكها فلم يفدها، فدخلت إلى الإمام عبد الرحمن فأقامت بفنائه وتلطفت مع بعض نسائه حتى أوصلتها إليه وهو في حال طرب وسرور، فانتسبت إليه فعرفها وعرف أباها ثم أنشدت:

إلى ذي الندى والمجد سارت ركائبي	على شحط تصلى بنار الهواجر
ليجبر صدعي أنه خير جابر	ويمنعني من ذي المظالم جابر
فإني وأيتامي بقبضة كفه	كذي ريش أضحى في مخالب كاسر
جدير لمثلي أن يقال بسرعة	بموت أبي العاصي الذي كان ناصري
سقاه الحيا لو كان حيًّا لما اعتدى	عليَّ زمان باطش بطش قادر
أيمحو الذي خطته يمناه جابر	لقد سام بالأملاك إحدى الكبائر

ولما فرغت رفعت إليه خط والده وحكت جميع أمرها فرَقَّ لها وأخذ خط أبيه فقبله ووضعه على عينه وقال: تعدى ابن لبيد طوره حتى رام نقض رأي الحكم، وحسبنا أن نسلك سبيله بعده ونحفظ بعد موته عهده، انصرفي فقد عزلته لك ووقع لها بمثل توقيع أبيه الحكم، فقبلت يده وأمر لها بجائزة فانصرفت وهي مشهورة بالأدب والحكم والجود والكرم.

ومنهن أم العلاء بنت يوسف الحجازية، كانت شاعرة لبيبة فصيحة أديبة ذات حسن وجمال وأدب وكمال، لها قصائد طنانة وموشحات رنانة، ذكرها صاحب المغرب وقال إنها من أهل المئة الخامسة فمن شعرها قولها:

كلما يصدر منكم حسن ... وبعلياكم يحلَّى الزمن
تعطف العين على منظركم ... وبذكراكم تلذ الأذن
من يعش دونكم في عمره ... فهو في نيل الأماني يغبن

وعشقها رجل أشيب فكتبت إليه:

الشيب لا ينجع فيه الصبا ... بحيلة فاسمع إلى نصحي
فلا تكن أجهل من في الورى ... يبيت في الحب كما يضحي

وتوفيت في بلدها وادي الحجارة بالأندلس.

ومنهن العروضية مولاة أبي المطرف عبد الرحمن غلبون الكاتب، سكنت بلنسية وكانت قد أخذت عن مولاها النحو واللغة ولكنها فاقته في ذلك وبرعت في العروض، وكانت تحفظ الكامل للمبرد والنوادر للقالي وتشرحهما، وقد قرأ عليها أبو داود سليمان الكتابين المذكورين وأخذ عنها العروض. توفيت بدانية بعد سيدها في عدد الخمسين والأربعمئة وقد تركت لها ذكرًا جميلًا وفخرًا طويلًا تتحدث به الأجيال من بعدها، رحمها الله تعالى.

وعلاوة على ما ذكرنا كانت الأندلسيات مطلقات الحرية يختلطن مع الرجال، وكن يحضرن الاحتفالات الرسمية في الأعياد وغيرها ويشهدن التمرينات والألعاب العسكرية، وكن يحضرن الصلاة في المساجد، وكانت نفوس الشعراء ترتاح إلى وجودهن إذ كن كزهر الربيع الزاهر في الرياض الفيحاء، وكان قادة العرب يسيرون إلى القتال باسم الله متحمسين بذكر معشوقاتهم، وكان كل قائد ينقش على سلاحه أو عمامته رسم خليلته التي كانت تحرضه على الإقدام والاستبسال، فكان يقتحم المخاطر ويعرض نفسه للمهالك في سبيل الحصول على الشهرة إرضاء لها. ولم يقتصر تأثير المرأة في الأندلس على الرجال من هذه الوجهة فقط، بل كانت لها اليد الطولى والقدح المعلى في انتشار المعارف وارتفاع شأن الأدب.

وبعد أن سقطت دولة العرب الإسلامية في الأندلس وفسدت أخلاق التتر الأتراك المسلمين لدى اختلاطهم بالفرس والسوريين وتأثير هؤلاء عليهم، أخذ يقل عدد النساء النابغات شيئًا فشيئًا، وفقدت حرية المرأة وأصبحت كأنها لم تكن، ورسخت بين المسلمين أقدام سيادة الأغوات والحرم، تلك السيادة الجائحة التي قادت المسلمين إلى الانحطاط والخمول والجمود والانقسام.

وأما العيشة العائلية بين طبقة المسلمين العليا فهي معلومة لا تحتاج إلى التعريف بها، ونرى السكوت عنها أولى لأن الفؤاد يرتعش لدى ذكرها جزعًا وترتعد الجوارح فزعًا. وماذا يستطيع الإنسان أن يقول عن أمه وأخته اللتين قد حكم عليهما بالحياة المظلمة الدائمة التي تقتل منهما الجسد والنفس معًا، وليس خلاص للمسلمين من حالتهم الأدبية والمادية حتى والسياسية أيضًا إلا بحل مسألتين مهمتين وهما: مسألة المرأة، وإصلاح اللغة، فإذا أوجدنا لنا زوجات وأمهات عاقلات متعلمات مدركات إذ ذاك تستطيع المسلمة أن تدبر شئونها وتقوم بالواجبات المفروضة عليها، وبناء على ذلك تستطيع تربية أولادها وتثقيف أخلاقهم وتبث في نفوسهم منذ نعومة أظفارهم روح الشهامة والمبادئ القويمة والصفات المجيدة التي لا غنى عنها في هذا المجتمع الإنساني، وحينئذ لا يكون أولادها عالة على الهيئة الاجتماعية ولا أعضاء أشلاء في جسمها. إن عيشتها الحالية داخل جدران البيوت وانحصارها في غرف الحرم تؤثر تأثيرًا سيئًا على قواها البدنية وتضعف نمو جسدها، الأمر الذي يفضي على تواتر الأعوام إلى فساد النسل وانحلاله.

ثم إن صعوبة اللغة وطريقة تعليمها تقف سدًّا منيعًا في طريق استنارة عقول المسلمين بنبراس العلوم والمعارف، فالمرأة واللغة هما عدوان لدودان للعالم الإسلامي، وهما داؤه العضال الذي تعسر شفاؤه ويقوده بالتدريج إلى الهلاك والاضمحلال، غير أنه في هذه الأيام المتأخرة أخذ المسلمون يوجهون التفاتهم إلى هاتين المسألتين، ومع ذلك فإن السعي الذي بذل في الأستانة والقاهرة وبومباي وكلكوتا بشأن إنشاء المدارس للجنسين وإصلاح اللغة وطريقة التعليم لم يأت بالفائدة المطلوبة، ولم يجد العلاج الشافي لذلك المرض العضال الذي سبق ذكره آنفًا، وينبغي لإيقاظ العالم الإسلامي من سبات نومه العميق وانتظامه في سلك الشعوب المتمدنة انقلاب عظيم وهيجان شديد، وينبغي أن يصل المسلمون إلى دور الإصلاح، ولا يتأتى لهم ذلك إلا إذا ظهر بينهم رجل ذو حزم وعزم وإقدام، ومثل هذا المصلح المنتظر يجد في الإسلام كما قدمنا سابقًا وفي تاريخه وأحاديثه تربة جيدة تصلح لغرس بذور الإصلاح.

ونعيد القول بأن القرآن الكريم والشريعة المطهرة لا يناقضان العلم والإقبال على النجاح والفلاح، غير أن حملتهما — ونعني بهم المشائخ والعلماء — قد ألبسوهما حلة توافق أغراضهم ومآربهم، وقد أدى ذلك إلى اعتقاد الناس بأن القرآن والشريعة والمدنية والعلم على طرفي نقيض.

إن مصلح مصر المغفور له محمد علي قد أدرك هذا الأمر ببصيرته النيرة وفكره الثاقب، فدعا إليه علماء مصر ومشائخها وأحاطهم بنطاق مثلث من جنوده المخلصين وأمرهم متهددًا إياهم أن يوقعوا على الإصلاحات التي عزم على إجرائها.

إن الديانة الإسلامية ديانة حية تبث في نفوس تابعيها روح النشاط والإقدام على الأعمال الخطيرة، وتعليمها مملوء بالشواهد العديدة القائلة بالعمل والجد والكد وخوض عباب مضمار الحياة وليس فيه أثر للضغط على قوى الإنسان العاملة، فقد قال الرسول ﷺ: «اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدًا واعمل لأخراك كأنك تموت غدًا»، وقال أيضًا: «اعقلها وتوكل» رواه الترمذي فقال: إن رجلًا قال يا رسول الله أعقل ناقتي وأتوكل أو أطلقها وأتوكل؟ فقال له رسول الله ﷺ: «اعقلها وتوكل.»

(المعرب) يظهر أن مبادئ المؤلف وأفكاره تطابق كل المطابقة لمبادئ فقيد الإسلام وفيلسوف الشرق المرحوم الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية القائل — رحمه الله — وهو في مرض الموت:

ولست أبالي أن يقال محمد	أبلَّ أم اكتظت عليه المآتم
ولكن دينًا قد أردت صلاحه	أحاذر أن تقضي عليه العمائم
وللناس آمال يرجون نيلها	وإن مت ماتت واضمحلت عزائم
فيا رب إن قدرت رجعي قريبة	إلى عالم الأرواح وانفض خاتم
فبارك على الإسلام وارزقه مرشدًا	رشيدًا يضيء النهج والليل قاتم

خاتمة الكتاب (للمعرب)

أرسلت كتابًا لحضرة الكاتب البليغ عزتلو أحمد بك أجايف مؤلف هذا الكتاب أستميحه إذنًا بالتوسع في الكلام على النساء الشهيرات الوارد ذكرهن في الكتاب، وقد قمت بهذا الأمر وأشرت إلى ذلك في حينه، وإنما فاتني ذكر ترجمة بعضهن؛ فرأيت إتمامًا للفائدة

أن أختم الكتاب بذلك وأزيد عليه ترجمة بعض النساء المصريات، فمنهن حضرة الكاتبة التركية الشهيرة فاطمة علية وقد ورد ذكرها مرارًا عديدة:

هي ابنة العلامة المفضال المؤرخ الشهير جودت باشا ناظر العدلية العثمانية سابقًا، ولدت فاطمة علية في الأستانة العلية ليلة ثلاثاء السابع والعشرين من شهر ربيع الثاني سنة ١٢٧٩ هجرية (الموافق ٩ أكتوبر سنة ١٨٦٢ ميلادية)، فلما تولى والدها ولاية حلب الشهباء سنة ١٢٨٢ كان عمرها ثلاث سنوات، وقد أحبها حبًّا شديدًا لما ظهر عليها من أمارات النجابة والذكاء وحدة الجنان، فصحبها معه ومكثت عنده مدة ولايته وهي سنتان.

ولما رجع إلى الأستانة العلية استحضر لها معلمين ومعلمات لإرضاعها لبان العلوم والآداب منذ نعومة أظفارها، وقد تقلب والدها في جملة وظائف مهمة في الدولة العثمانية، ولما بلغت من العمر أربع عشرة سنة تعين والدها واليًا على ولاية يانيه وكان ذلك عام ١٢٩٢ هجرية فذهبت معه، غير أنه لم يمكث كثيرًا ورجع إلى الأستانة، وكانت أينما سارت وحلت تشتغل بالعلوم والمعارف، وفي سنة ١٢٩٥ تعين والدها واليًا على ولاية سورية فصحبته إليها وأقامت في دمشق، ثم أقامت شتاء في بيروت ورجعت برجوع والدها إلى الأستانة.

وكان أول ما اشتغلت به من العلوم من سن الطفولية تعلُّم أصول القراءة والكتابة التركية، وتلقت دروس العربية والفارسية من عدة معلمين خصوصيين مختلفي الطبقات، ثم اشتغلت بتحصيل اللغة الفرنساوية فأتقنتها على يدي آنسة باريسية، ولما كانت في سوريا تقدمت في تحصيل اللغة العربية بجميع فروعها وفنونها من بديع وعروض ونحو وبيان وخلافه.

وقد أخذت عن والدها علم التوحيد والمنطق والرياضة والهندسة وبرعت فيها براعة عظيمة، وأما علم الموسيقى فإنها أخذته بكامل أنواعه وفروعه عن ماهرين فيه من ترك وعرب وفرس وإفرنج، فوقفت على جميع أسراره وفاقت أهل زمانها فيه، ومع تفرغها لجميع هذه العلوم فإنها وجهت التفاتها للأعمال المنزلية والأشغال اليدوية، فأحرزت منها نصيبًا وافرًا، وقد اشتهرت المؤلفة بسلاسة العبارة وأسلوب الكتابة، فإنها سارت في ذلك على منهج جديد لم يسبقها إليه أحد، ولكنها لم تستطع في بادئ الأمر نشر مبتكرات أفكارها لاشتغالها بتربية الأولاد وغير ذلك من الشئون المنزلية، بيد أنه لما ارتقت الأفكار وأشرق نور العلم في الأستانة العلية، وابتدأ بعض المخدوات العثمانيات في نشر الآثار

الأدبية وتأليف الكتب أخذت صاحبة الترجمة تسابقهن في ميدان الآداب؛ فعربت رواية (دولانته) عن اللغة الفرنسية إلى التركية وسمتها باسم «مرام»، فأبدعت فيها كل الإبداع وأجادت في أسلوبها، ولكنها ضنت بذكر اسمها فأخفته صونًا واحتجابًا، وانتظرت أقوال أدباء العصر عنها، ولكن تلقاها الأدباء بمزيد الاستحسان لما كانت عليه من الإنشاء الجديد الذي لم ينسج على منواله كاتب تركي، وقدرها الكاتب الشهير أحمد مدحت أفندي محرر جريدة ترجمان حقيقت حق قدرها وكتب عنها جملة فصول شائقة وقد شجعها بذلك إلى خدمة العلوم والآداب.

وقد كثر اللغط بين أدباء الأتراك بشأن هذه الرواية وبذلوا الوسع لمعرفة ناسج بردها، فأماط لهم مدحت أفندي النقاب وأخذت على إثر ذلك تنشر المقالات الرنانة باسمها في جريدة ترجمان حقيقت، وقد ناضلت الأدباء وناقشت الكتاب فذاع صيتها وعظم اسمها حتى أضحى لا يذكر إلا مقرونًا بالاحترام والإعجاب، وبلغت شهرتها أوروبا فقصد زيارتها كثير من كاتبات الغرب حيث كن يذاكرنها في العلوم والمعارف فيعجبن إعجابًا شديدًا بما أوتيته من الفطنة والذكاء وسمو المدارك.

وقد جرت بينها وبين ثلاثة من سيدات الإفرنج السائحات محاورات مهمة كتبتها في رسالة على حدة وسمتها (نساء الإسلام)، وقد نشرتها برمتها جريدة ترجمان حقيقت سنة ١٨٩٢ ميلادية، فعربتها عنها جريدة ثمرات الفنون العربية التي تطبع في بيروت، وقد ترجمت تلك الرسالة إلى اللغتين الفرنسية والإنكليزية فصادفت استحسانًا عظيمًا، وكان بودنا نقلها برمتها ولكن ضيق المقام حال دون ذلك، ثم وضعت صاحبة الترجمة رواية باللغة التركية دعتها (محاضرات) أدهشت قراءها بطلاوة أسلوبها وعذوبة عباراتها، ولم تزل للآن مقيمة في الأستانة العلية تشتغل بالآداب والعلوم وتضع المؤلفات المفيدة، وقد قامت حضرتها بخدمات جليلة لبنات جنسها أكثر الله من أمثالها بين نساء الشرق.

ومن نابغات مصر في هذا العصر الكاتبة الأديبة والشاعرة اللبيبة المرحومة عائشة عصمت بنت إسماعيل باشا تيمور، ولدت — رحمها الله — سنة ١٢٥٦ بمدينة القاهرة وقد تعلقت بالعلم منذ نعومة أظفارها، وأخذت النحو والعروض عن أساتذة أفاضل بين يدي أبويها وكانت تكتب الخط الجيد وبرعت في الفقه وغيره من العلوم الدينية، ثم إنها تعلمت اللغة الفارسية وكانت تقضي أكثر أوقات فراغها بمطالعة الدواوين الشعرية وكتب الأدب، وفي عام ١٢٧١ هجرية تزوجت بالسيد الشريف محمود بك الإسلامبولي كاتب ديوان همايوني بالأستانة العلية، وبعد زواجها اقتصرت عن المطالعة وإنشاء

الأشعار حيث وجهت التفاتها إلى تدبير المنزل وتربية أولادها، وبعد وفاة والدها وزوجها أصبحت حاكمة لنفسها فعادت إلى طلب العلم لا سيما النحو والعروض فوقفت على أسرار بحوره، وقد كان لها الباع الطولى والقدح المعلى في قرض الشعر، فنظمت القصائد الرنانة فذاع صيتها وأحرزت منزلة سامية في عالم الأدب، ولها ديوان شعر اسمه «حلبة الطراز» يغني اسمه عن ذكره، وديوان آخر باللغة التركية سمته شكوفه، وألفت كتابًا جليل الفائدة اسمه «نتائج الأحوال» ونشرت عدا ذلك مقالات عديدة في جريدة الآداب كان لها حسن الوقع في نفوس قارئيها، وقد راسلت حضرة الشاعرة الشهيرة السيدة وردة اليازجي ومن بديع شعرها قولها من قصيدة طويلة:

بيد العفاف أصون عز حجابي وبعصمتي أسمو على أترابي
وبفكرة وقادة وقريحة نقادة قد كملت آدابي

إلى أن قالت:

ما ضرني أدبي وحسن تعلمي إلا بكوني زهرة الألباب
ما ساءني خدري وعقد عصابتي وطراز ثوبي واعتزاز رحابي

وقولها في الختام:

فأنرت مصباح البراعة وهي لي منح الإله مواهب الوهاب

ومن قولها في الغزل:

منثور حسنك في الحشا سطرته ورقيم خطك طالما كررته
سطر العذار تلوته فوجدته يومي لسفك دمي وقد سلمته

ومما كتبته في صدر جواب:

سلام قد حوى منظوم در سلوا عنه الرسالة حين عنت
ولو رامت تعبر عن ضميري وما لاقى بكم قلبي لغنت

ولبثت إلى آخر حياتها زهرة يانعة في روض الأدب طارت شهرتها في الآفاق وتحدث بأدبها وشعرها الركبان، رحمها الله تعالى.

ومن أديبات هذه الأيام في مصر حضرة الأديبة والشاعرة الفاضلة زينب فواز أفندي، ولدت في قرية تبنين إحدى قرى ولاية بيروت ضمن قائمقامية صيدا وذلك سنة ١٨٦٠ في خلال الثورة الشهيرة في ذاك العام.

ولما بلغت صاحبة الترجمة أشدها نزحت إلى القطر المصري واستوطنت الإسكندرية فدرست فيها القراءة والكتابة على يدي أحد الأساتذة المتخرجين من جامع الشيخ محمد شلبي، ثم تولى تدريسها الأستاذ الفاضل الشيخ محي الدين النبهاني، فأخذت عنه الإنشاء والنحو ثم درست الصرف والبيان والعروض والتاريخ على فريد عصره ووحيد دهره الأستاذ الفاضل المرحوم حسن حسني باشا الطويراني صاحب جريدة النيل، وقد نبغت في كل العلوم التي تلقنتها، ويدلنا على ذلك التآليف الجليلة التي ألفتها الشاهدة على ما لصاحبة الترجمة من الباع الطويل في فنون الأدب، ولها مقالات عديدة نشرتها في الجرائد دفاعًا عن بنات جنسها، وناظرت في هذا الموضوع الأدباء وكبار الكتاب، وأما تآليفها المطبوعة فهي:

كتاب الدر المنثور في طبقات ربات الخدور وقد صدرته بهذين البيتين:

كتابي تبدَّى جنة في قصورها ... تروح روح الفكر حور التراجم
خدمت به جنسي اللطيف وإنه ... لإكرام ما يهدى لغر الكرائم

ورواية حسن العواقب، ورواية الهوى والوفاء، وكتاب الرسائل الزينبية، وتطبع الآن رواية الملك قورش، ولها كتب أخرى لم يتسن لها طبعها للآن: وهي كتاب مدارك الكمال في تراجم الرجال، وكتاب الجوهر النضيد في مآثر الملك الحميد، وديوان شعر طويل جدًّا، ولم تزل إلى يومنا هذا مثالًا للفضل والنبل تضع التأليف تلو التأليف أمد الله في عمرها وكثر من أمثالها.

ثم إنه قبل ختام هذا الكتاب أقول إني ما كنت قبل شروعي في تعريبه متصورًا ما سأصادفه من المتعة والأتعاب، وذلك بالنظر لما جاء في الكتاب من الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة والنقط التاريخية التي لا يصح تعريبها مطلقًا، بل يتحتم نقلها عن أصلها كما نزلت باللغة العربية الفصحى، غير أن أملي بما سيصادفه هذا الكتاب من استحسان جمهور القراء جعلني أواصل السعي حتى ذللت جميع تلك

المصاعب التي كادت تثبط عزائمي، وإني أدع الحكم للقراء في ذلك بذكري لهم أكثر أسماء الكتب التي رجعت إليها لدى تعريب هذا الكتاب وهي:

القرآن الشريف	تاريخ الخلفاء لجلال الدين السيوطي
سيرة ابن هشام	الوسائل إلى معرفة الأوائل له أيضًا
السيرة الحلبية	أعلام الناس للأتليدي
صحيح البخاري	العقد الفريد
الجامع الصغير	الأغاني
مشاهير الإسلام	الدر المنثور لزينب فواز
مروج الذهب للمسعودي	تاريخ ابن الجوزي
الأوراق في أخبار آل عباس	المكتبة الأندلسية
وفيات الأعيان لابن خلكان	الجلد عند فقد الولد للسيوطي
حضارة الإسلام في دار السلام	ابن إياس
تاريخ الأمم والملوك للطبري	الإحاطة في أخبار غرناطه
النجوم الزاهرة لجمال الدين الأتابكي	تاريخ الحروب الصليبية
المختصر المحتاج إليه من تاريخ بغداد	رحلة ابن بطوطة
كنز الحق المبين في أحاديث سيد المرسلين	ابن الأثير
ابن خلدون	دائرة المعارف

هوامش

(١) المجلة الهندية العصرية للمصلح ما لا باري.

(٢) كالمؤرخة فاطمة علية، والكاتبتين المجيدتين نظلة ونيكار هانم.

(٣) كذا يدعو شكسبير محمدًا.

(٤) راجع كتاب أرنست رنان «الإسلام والعلم».

(٥) انظر تاريخ الآداب الفرنسية والآداب البزنطية ضد الإسلام، تأليف جمعية المبشرين في قازان.

(٦) انظر تاريخ الأديان لأرنست رنان وكذلك رواية محمد لمؤلفها ف. ميشيل.

(٧) كشف النقاب عن الدين الإسلامي وهو بحث في بيان انتشار الدين وبقائه على طريقة تؤدي إلى زيادة الاعتقاد في الدين المسيحي.

(٨) راجع ترجمة القرآن لسابلوجوف.

(٩) راجع كتاب محمد والمحمدية لماكس موللر.

(١٠) كتاب الربانيات لعمر خيام.

(١١) راجع كتاب (شاه نامه) للفردوسي.

(١٢) "Zende Acesta" Lames Darmerterer.

(١٣) لبيد.

(١٤) راجع كتاب المملكة الشرقية السابعة لرولنسون.

(١٥) راجع كتاب الإسلام ومؤسسه لجون شوال.

(١٦) راجع كتاب «البلاد العربية قبل الإسلام» لماشانوف.

(١٧) الطبري صحيفة ٢٦٥ طبع القاهرة.

(١٨) انظر كتاب منحة الصادقين في تفسير القرآن للملا فتح الله ص٣٣٣ وما بعدها.

(١٩) تفسير القرآن للملا فتح الله ص٣٣٣ وما بعدها.

(٢٠) ابن خلدون.

(٢١) الطبري ص٢٧٠ طبع مصر.

(٢٢) الدعموص دويبة تكون في الماء، ويطلق على الدخال في الأمور وصنفة الثوب طرفه.

(٢٣) الأحاديث الشريفة المذكورة مأخوذة عن رسالة الجلد عند فقد الولد للسيوطي.

(٢٤) أبو الفدا، كتاب الأغاني.

(٢٥) أرنست رنان في كتابه تاريخ الأديان.

(٢٦) مجمع النورين.

(٢٧) ابن خلدون.

(٢٨) (المعرب) بحثت عن هذه الرواية في أكثر كتب السير النبوية وكتب التاريخ فلم أقف لها على أثر، فعربتها عن الأصل الروسي حرفيًّا.

(٢٩) راجع كتاب (أشهر النساء) للمرحوم معتمد السلطنة وزير معارف دولة إيران العلية.

(٣٠) «المعرب» عن الدر المنثور.

(٣١) الطبري.

(٣٢) لبيد.

(٣٣) انظر كتاب تأثير المرأة في الإسلام لمؤلفه المير علي.

(٣٤) عن الدر المنثور والمسند وسيرة ابن هشام وغيرها.

(٣٥) الأغاني، الدر المنثور، ابن خلكان.

(٣٦) شذور العقود لابن الجوزي، ابن خلكان، الدر المنثور.

(٣٧) الأغاني. الأتليدي، مقدمة ابن خلدون.

(٣٨) ابن الأثير وابن جبير والأغاني، وحضارة الإسلام.

(٣٩) المسعودي، الدر المنثور.

(٤٠) ابن خلكان، الدر المنثور.

(٤١) شراب يصنع من لبن الخيل يستعمله المسلمون الروسيون إلى يومنا هذا، وبعضهم يستعمله شهورًا بقصد التعالج به من الأمراض الصدرية والسل.

(٤٢) الدر المنثور، ابن إياس.

(٤٣) ابن بطوطة، الدر المنثور.